



**T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
LİSANSÜSTÜ EĞİTİM ENSTİTÜSÜ**

**TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM DALI
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ BİLİM DALI(ARAPÇA)**

**ZAHERAT AL-TAMYİZ AL-'UNSURI WA MU'ALAJATOHA Fİ AL-QUR'AN
AL-KARİM MIN KHİLAL TAFSİR AL-ZİLAL Lİ SAYYİD QUTB**

ظاهرة التمييز العنصري ومعالجتها في القرآن الكريم من خلال تفسير الظلال لسيد قطب

YÜKSEK LİSANS TEZİ

**SARYA ALABBAS
207239059**

DANIŞMAN: Dr. AHMET ALABALIK

**YALOVA
TEMMUZ 2023**





T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
LİSANSÜSTÜ EĞİTİM ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM DALI
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ BİLİM DALI (ARAPÇA)

ZAHERAT AL-TAMYİZ AL-'UNSURI WA MU'ALAJATOHA Fİ AL-QUR'AN AL-
KARİM MİN KHİLAL TAFSİR AL-ZİLAL Lİ SAYYİD QUTB

ظاهرة التميز العنصري ومعالجتها في القرآن الكريم من خلال تفسير الظلال لسيد قطب

YÜKSEK LİSANS TEZİ

SARYA ALABBAS
207239059

DANIŞMAN: Dr. AHMET ALABALIK

YALOVA
TEMMUZ 2023



ETİK BEYAN

Yalova Üniversitesi Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Tez Yazım Kuralları'na uygun olarak hazırladığım “**ZAHERAT AL-TAMYIZ AL-'UNSURI WA MU'ALAJATOHA FI AL-QUR'AN AL-KARIM MIN KHILAL TAFSIR AL-ZILAL LI SAYYID QUTB**” başlıklı bu tez çalışmada; tez içinde sunduğum verileri, bilgileri ve dokümanları akademik ve etik kurallar çerçevesinde elde ettiğimi, tüm bilgi, belge, değerlendirme ve sonuçları bilimsel etik ve ahlak kurallarına uygun olarak sunduğumu, tez çalışmada yararlandığım eserlerin tümüne uygun atıfta bulunarak kaynak gösterdiğimi, kullanılan verilerde herhangi bir değişiklik yapmadığımı, bu tezde sunduğum çalışmanın özgün olduğunu bildirir, aksinin tespiti halinde doğabilecek her türlü hukuki sorumluluğu kabul ettiğimi taahhüt ve beyan ederim.

İmza

SARYA ALABBAS

أتعهد وأصرح أبين قد جهزت رسالتي هذه بعنوان: "ظاهرة التمييز العنصري ومعالجتها في القرآن الكريم من خلال تفسير الظلال لسيد قطب" وفقاً لقواعد كتابة الرسالة الخاصة بمعهد الدراسات العليا في جامعة يالوفا، وأني قد حصلت على البيانات والمعلومات والوثائق الموجودة فيها في إطار القواعد الأكاديمية والأخلاقية، وقد قدمت جميع المعلومات والوثائق والتقييمات والنتائج وفقاً للقواعد العلمية والأخلاقيات التي أشرت إليها، وعزوت كل ما نقلته فيها إلى مصادره ومراجعته المستفاد منها خلال دراسة الرسالة، دون القيام بإجراء أي تغيير في البيانات المنقولة، وأصرح بأن العمل الذي قدّمته في هذه الرسالة أصلي، وأتحمل كامل المسؤولية القانونية التي قد تنشأ في حالة ثبوت عكس ما صرحت به.

التوقيع

سارية العباس



ÖNSÖZ

الحمد لله على توفيقه وإحسانه، وله الحمد على تيسيره وامتنانه، له الحمد أولاً وآخرأ أن يسر لي الانتهاء من بحثي حول معالجة العنصرية في القرآن الكريم من خلال تفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب، والجزء موصول لصاحب الكتاب والذي كتبه في محنة شديدة تعرض لها، وخطت يده حروفاً مزوجة بكبرياء العزة بالإسلام، وخرجت من قلب ممتلئ باليقين، ومن نفسي مشبعة بالقرآن.

والدعاء وفيه للوالد على تحفيزه وتوجيهه لي نحو طلب العلم رغم الظروف الصعبة، وللوالدة على دعائها وإحسانها، وللزوجة على صبرها ومساندتها، وللأولاد كل الدعاء بالتوفيق والصالح، وأن يجعل سبحانه وتعالى هذا البحث من العلم الذي يُنتفع به.

وأقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي ومن استفدت منهم، أخص أستاذي ومشرفي الدكتور أحمد الأبالق، شاكرأ له تواضعه وقبوله الإشراف والمتابعة في هذا البحث، وتوجيهه بالنصح والملاحظات عليه، فجزاه الله خير الجزاء.

سارية العباس

SARYA ALABBAS

تموز – 2023م

TEMMUZ 2023



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
ETİK BEYAN	v
ÖNSÖZ	vii
فهرس المحتويات	ix
الخلاصة	xi
ÖZET	xiii
ABSTRACT	xv
مقدمة	1
سبب اختيار البحث:	4
أهمية الموضوع:	4
مشكلة البحث:	5
أسئلة البحث:	5
أهداف البحث:	5
منهج البحث:	6
حدود البحث:	6
الدراسات السابقة:	8
خطة البحث:	10
الفصل الأول: التعريف بالمؤلف والتفسير	14
المبحث الأول: ترجمة سيد قطب	14
المطلب الأول: نشأته وتحصيله العلمي:	14
المطلب الثاني: مساهماته العلمية والسياسية	17
المطلب الثالث: محنة سيد قطب	21
المبحث الثاني: التعريف بتفسير في ظلال القرآن	24
المطلب الأول: أهداف تفسير "في ظلال القرآن".	25
المطلب الثاني: اللون التفسيري لتفسير "في ظلال القرآن".	28
المطلب الثالث: المنهج التفسيري لسيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن".	33
الفصل الثاني: العنصرية مفهومها وأسبابها وأنواعها	39
المبحث الأول: مفهوم العنصرية ونبذة تاريخية عنها.	39
المطلب الأول: العنصرية لغةً واصطلاحاً.	39
المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن العنصرية	42

49	المبحث الثاني: أسباب العنصرية وأنواعها.....
49	المطلب الأول: أسباب العنصرية.....
56	المطلب الثاني: أنواع العنصرية.....
69	الفصل الثالث: مبادئ علاج العنصرية في تفسير "في ظلال القرآن".....
69	المبحث الأول: العقيدة ودورها في معالجة العنصرية.....
69	المطلب الأول: مكانة العقيدة عند سيد قطب.....
72	المطلب الثاني: أركان الإيمان ودورها في معالجة العنصرية.....
75	المبحث الثاني: التشريع الإسلامي ودوره في معالجة العنصرية.....
76	المطلب الأول: العبادات ودورها في معالجة العنصرية.....
79	المطلب الثاني: المعاملات ودورها في معالجة العنصرية.....
82	المطلب الثالث: العدالة الاجتماعية والمساواة ودورهما في معالجة العنصرية.....
87	خاتمة.....
89	التوصيات.....
90	فهرس المصادر.....
93	ÖZGEÇMİŞ.....

ظاهرة التمييز العنصري ومعالجتها في القرآن الكريم من خلال تفسير الظلال لسيد قطب

الخلاصة

يعالج هذا البحث ظاهرة التمييز العنصري ومعالجتها في القرآن الكريم من خلال تفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب. يهدف البحث إلى إبراز المعالجات القرآنية لظاهرة التمييز العنصري في العصر الحديث، وهي ظاهرة منتشرة في المجتمعات المسلمة وغيرها، وخاصة في المجتمعات الغربية بعد عصر الحداثة، ولها آثار سلبية تهدد وحدة المجتمع وسلامته، وقد فشلت الحلول القانونية في الحد من هذه الظاهرة، فكان لا بُدَّ من بيان طبيعة هذه الظاهرة الاجتماعية وآثارها السلبية، وإبراز المعالجات القرآنية لظاهرة العنصرية للوصول إلى مجتمع متآخ ومتعاون.

اعتمد الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي، وخلصَ البحث إلى أنَّ العنصرية ظاهرة قديمة حديثة، وتظهرُ في أشكالٍ متعددة كالعنصرية في الجنس أو اللون أو العرق، وعلاج هذه الظاهرة كما يرى سيد قطب ينطلق من مبادئ أهمها: التوحيد وهي الحقيقة الأولى التي قام عليها الكون، ثمَّ وحدة الأصل الإنساني والتي تؤسس لمبدأ المساواة بين الناس جميعاً، واتباع المنهج القرآني الذي يضم منهجاً ربانياً متكاملًا فيه العدل والخير كله، كذلك قيام العدالة الاجتماعية التي تكفل تحقيق المساواة الإنسانية الكاملة.

الكلمات المفتاحية: العنصرية، ظاهرة، معالجة، قطب.



Seyyid Kutub'un "Zılâl" tefsiri ile Kuran-ı Kerim aracılığıyla ırkçılık olgusunun ele alınması

ÖZET

Bu araştırma, modern çağda ırkçılık fenomeninin Kuran perspektifinden ele alınmasını amaçlamaktadır. Bu fenomen, Müslüman toplumlarda ve diğer toplumlarda yaygın olan ve özellikle modern dönemden sonra Batı toplumlarında görülen bir olgudur. Bu olgu, toplumun birliğini ve güvenliğini tehdit eden olumsuz etkilere sahiptir ve yasal çözümler bu olguyu sınırlamada başarısız olmuştur. Bu nedenle, bu sosyal olgunun doğasının ve olumsuz etkilerinin açıklanması ve Kuran perspektifinden ırkçılık fenomenine yönelik çözüm önerilerinin vurgulanması gerekmektedir. Araştırmacı, bu konuda analitik bir çıkarıma dayanan bir yöntem kullanmış ve ırkçılığın eski ve modern bir olgu olduğunu ve cinsiyet, renk veya etnisite gibi farklı formlarda ortaya çıktığını belirtmiştir. Seyyid Kutub'un gördüğü gibi bu olgunun tedavisinin temel prensiplerinin tevhid, insanlık birliği ve insanlar arasında tam eşitlik ilkesi olduğunu vurgulamıştır. Ayrıca, Kuran metodunun takip edilmesi gerektiğini ve bu metodun adalet ve iyilikle dolu ilahi bir metodoloji olduğunu ifade etmiştir. Ayrıca, tam insan eşitliğinin sağlanmasını garanti eden sosyal adaletin yerine getirilmesine vurgu yapmıştır.

Anahtar Kelimeler: Irkçılık, Çözüm, Fenomen, Kutub



The Phenomenon of Racial Discrimination and its Treatment in the Holy Quran through Sayyid Qutb's 'Zilal' Commentary

ABSTRACT

This research addresses the phenomenon of racial discrimination and its treatment in the Holy Quran through the interpretation of "In the Shade of the Quran" by Professor Sayyid Qutb.

The researcher adopted an inductive-analytical methodology, and the research concludes that racism is an ancient yet contemporary phenomenon that manifests in various forms such as racial discrimination based on gender, color, or ethnicity. Treating this phenomenon, as viewed by Sayyid Qutb, is based on important principles including monotheism, which is the fundamental truth upon which the universe is built, followed by the unity of human origin that establishes the principle of equality among all people. It also involves following the Quranic methodology, which encompasses a comprehensive divine approach encompassing justice and goodness in its entirety. Additionally, it entails establishing social justice that ensures the realization of complete human equality.

Keywords: Racism, Processing, Phenomenon, Qutub



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وأكرمتنا، لك الحمد بالإيمان، ولك الحمد بالقرآن، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيد الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين، اللهم لك الحمد بأن أكرمنا بالإسلام، وأنعمت علينا بالإيمان، وأرسلت إلينا سيد الأنام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه أفضل شريعة وأكملها، جاء بالأخلاق أحسنها، وبالأحكام أيسرها، صلاة ربي وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، وعلى آلك وأصحابك أجمعين، وبعد:

فإن الله أرسل خاتم الرسل وأنزل أعظم الكتب بياناً للناس وحجةً عليهم، وقد كان من سمة هذه الشريعة أنها ميسرة ومبشرة لا معسرة ولا منفرة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] وقد تجسدت هذه الشريعة واقعاً عملياً في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام، تفوح بها كتب السير والتاريخ، ويتزم بها الخطباء والحكماء، ذلك أن المشرع سبحانه وتعالى هو الأعلام بما يصلح الخلق وينفعهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، فهذه الشريعة الغراء تعيش البشرية في سعادة وهناء، وتنعم في ظلال القرآن آمنة مطمئنة، تأتي ما أمرت به، وتنتهي عما نُهيَتْ عنه.

حتى إذا حادت البشرية عن شريعة الله، وغرقت في أحوال العبودية لغيره، غابت عنها بوصلة الهداية، وتاهت في طرقات الجاهلية، وانعكست تلك الضلالات على واقعها وبالأخص خسراناً، وعذاباً ومعاناة، وظهرت ولا بد أمراض اجتماعية لا يمكن للبشرية أن تجد لها حلاً بعيداً عن نور القرآن وظلال آياته، وبعيداً عن توحيد الله وطمأنينة عبادته، وهذا ما تعيشه البشرية اليوم، وهو ما عاشته دوماً بعيداً عن طريق الحق، تعيش البشرية ظواهر اجتماعية تفتت من وحدتها، وأمراضاً تأكل من جسدها، تعيش البشرية قلقاً وصراعاً دائمين، وتبحث عن مخرج لها فلا تجد، ولن تجد مهما بحثت حتى تعود إلى شريعة ربها.

ومن خلال التعمق في معرفة التصورات الإسلامية، والوقوف على حكمة التشريع الإسلامي، يُدرك الناظر دور الإسلام في معالجة الظواهر الاجتماعية المنحرفة، وعلى رأسها تلك الانحرافات التي لا تقوم على أسس أو مبادئ، ولا تستند لحق ولا دليل، بل هي أمراض اجتماعية ظهرت لما خالفت البشرية مراد الخالق عز وجل منها، وانتكست عن الفطرة التي أوجد العباد عليها، ومن بدّل هذه الفطرة، أو عمل في الناس بغير منهج الله وما أَرَادَهُ اللهُ منهم، واجه انحرافات اجتماعية وانتكاسات أخلاقية.

والتصور الإسلامي يؤسس لحقائق واضحة في القرآن الكريم، فأول حقيقة يقوم عليها الكون هي حقيقة توحيد الخالق سبحانه وتعالى، وهو الذي قامت السماوات والأرض بأمره، والحقيقة الثانية هي أنه سبحانه وتعالى خلق الناس كلهم من أصل واحد، وأوجدتهم من نفس واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، والحقيقة الثالثة هي أنه ليس بين الله وبين أحدٍ من خلقه صلة أو نسب، وأن المعيار الذي تقوم عليه الدنيا هو معيار التقوى والعمل



الصالح، والناس كلهم في هذه الدنيا أبيضهم وأسودهم وذكرهم وأنثاهم سواء في هذه الدنيا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

وبهذه الحقائق تعيش البشرية في طمأنينة وسلام، ومن غيرها تواجه مظاهر الخلاف والفرقة، وتنتشر الظواهر العنصرية والعصبيات الجاهلية، والتي أوجدت العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي علاجاً لها، فالإسلام جاء إلى مجتمع جاهلي ليخرجه من ظلمات الجهل إلى نور الإسلام، ومن جور الأديان والأهواء إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.



سبب اختيار البحث:

أُلخص أسباب اختيار البحث في الأمور الآتية:

- توتر الأوضاع الاجتماعية في كثيرٍ من المجتمعات المسلمة، وانتشار ظاهرة العنصرية بينها.
- الرغبة في البحث في هذا الموضوع المتصل بالحياة الواقعية اتصالاً مباشراً.
- فشل الحلول القانونية في الحدِّ من ظاهرة العنصرية، وبيان العلاج القرآني لظاهرة العنصرية.
- عمق صاحب تفسير الظلال وتركيزه على معالجة التصورات الجاهلية التي تحملها المجتمعات المعاصرة، وسعيه في صياغة التصورات الإسلامية الصحيحة التي تشكل الفرد والمجتمع المسلم، وقرب عصر المؤلف ومعاصرتة لعددٍ من الظواهر الاجتماعية المنتشرة، ساهمت هذه الأسباب في اختيار تفسير "في ظلال القرآن" كمحطة بحثٍ في معالجة هذه الظاهرة الاجتماعية.

أهمية الموضوع:

تطرق البحث لبيان العلاج القرآني لظاهرة التمييز العنصري من خلال تفسير "في ظلال القرآن"، وتبرز أهمية البحث في هذه النقاط:

- بيان حقيقة هذه الظاهرة الاجتماعية وجذورها في المجتمعات السابقة، والوقوف على أسبابها ودوافعها.
- التحذير من خطر انتشار ظاهرة العنصرية في المجتمعات، وآثارها السلبية على وحدة المجتمع وسلامة أفراد.
- حاجة المجتمعات لخطوات علاجية تحدُّ من الممارسات العنصرية.
- معرفة المعالجات القرآنية للظواهر العنصرية، وكيف ساهمت التشريعات الإسلامية في معالجة الظواهر العنصرية، وإنشاء مجتمعٍ متآخٍ ومتعاون.
- الاستفادة من اهتمام المؤلف بنقد الحالة المجتمعية السائدة في فترة زمنية قريبة، ومحاولته نقد الظواهر الجاهلية المنتشرة فيه، ووضع التصورات الإسلامية الصحيحة.

مشكلة البحث:

تعدُّ الأمراض الاجتماعية ظاهرةً خطيرةً تساهم في تفكك المجتمعات وغياب الأمن والعدل عنها، وهذه الأمراض التي تفتك بجسد المجتمعات تحتاج علاجاً كما يحتاج جسد الإنسان لذلك، ومن خلال ملاحظة انتشار هذه الظواهر الاجتماعية السلبية -وعلى رأسها التمييز العنصري- في المجتمعات الغربية عموماً وفي بعض المجتمعات المسلمة بشكلٍ خاص، كان لا بدَّ من الوقوف على خطورة هذه الظاهرة، والذي ساهمت وسائل التواصل الاجتماعية في انتشارها ووصولها، بل في زيادة موجاتِ العنصرية والتحريض بشكلٍ كبير، وهذه الظاهرة تعدُّ ظاهرةً قديمةً حديثة، إذ تعرف هذا المرض المجتمعات الجاهلية القديمة، وقد حرص الإسلام على معالجتها ووضع التشريعات التي تعالج هذه الأمراض الاجتماعية، فكان لا بدَّ من تخصيص الحديث عن المعالجات القرآنية لهذه الظاهرة بالتحديد، ولا سيما من خلال دراسةٍ لتفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب.

أسئلة البحث:

سيجيب البحث عن الأمور الآتية:

- هل ظهرت العنصرية في المجتمعات القديمة، وكيف انعكس انتشارها على العلاقات الاجتماعية؟
- ما هي ظاهرة العنصرية؟ ماهيتها؟ أسبابها؟ أنواعها؟
- هل جاء القرآن بعلاج هذه الظواهر السلبية؟ وما المبادئ التي جاءت لعلاج العنصرية؟
- كيف ساهم التشريع الإسلامي والعقيدة الإسلامية في معالجة العنصرية؟
- ما هو دور الوحدة الإنسانية في معالجة التمييز العنصري؟

أهداف البحث:

تأتي أهمية هذا البحث من اتصاله المباشر بالعلاقات بين الأفراد والمجتمعات، ومحاولته إظهار العلاجات القرآنية لظاهرة التمييز العنصري، ويهدف البحث إلى:

- الوقوف على ظاهرة اجتماعية سلبية وهي التمييز العنصري.

- معرفة العلاج القرآني لهذه الظاهرة من خلال تفسير "في ظلال القرآن".
- التنبيه على آثار هذه الظواهر السلبية في المجتمعات، وطرق معالجتها.
- بيان دور التشريع الإسلامي والعقيدة في صياغة المجتمعات الخالية من المظاهر العنصرية.
- تعزيز دور الوحدة الإنسانية في معالجة التمييز العنصري.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي الذي يقوم على جمع مادة نطاق البحث من كتاب تفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب رحمه الله، إضافة لبقية مؤلفاته، واستخلصت من هذه المصادر مادة البحث بوضوح واختصار، كما عملت على حصرها وترتيبها، مع الاطلاع على ما صُنِّف في مادة البحث من مصادر أخرى، والاعتماد بصورة أساسية على المنهج التحليلي للنصوص الواردة مع بيان وجه الاستدلال، إذ تتنوع الأدلة القرآنية واستدلال المصنف بها بين بيانٍ صريحٍ حول الموضوع، أو تعريضٍ قريبٍ يحتاج نظراً وتأملاً.

وفي منهج الكتابة:

- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر رقم الآية بعدها مباشرة.
- خرَّجت الأحاديث التي أوردتها، واعتمدت في تخرجها على الترتيب الآتي:
- إذا ورد الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذلك، وإن لم يكن بهما عزوته إلى مصادره المعتمدة، مقدماً الكتب الستة على غيرها، وإذا ورد في غيرها أخرجته وأوردت آراء العلماء في حكمه.

حدود البحث:

يقتصر هذا البحث على بيان المعالجات القرآنية لظاهرة العنصرية من خلال تفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب رحمه الله، أورد البحث التفسيرات والأقوال الواردة في تفسير الظلال، ولم يتعرض لما جاء في تفاسير أخرى غيره.



الدراسات السابقة:

- محمد البهي، التفرقة العنصرية والإسلام، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، 1399هـ، 1979م، كتاب من القطع الصغير، ناقش فيه أسس الإسلام في العدالة والمساواة بين الناس، وتطرق لشبهة الاسترقاق وأنها حالة لا علاقة لها بالتفرقة العنصرية، كما تحدث عن حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين ودورهم في إرساء العدل والمساواة.
- أحمد الزغيبي، العنصرية اليهودية وآثارها على المجتمع الإسلامي والموقف منها، هذه دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود سنة 1413هـ، هي دراسة علمية مختصة بالوقوف على مكائد اليهود وممارساتهم العنصرية في المجتمعات خلال تاريخهم، وعلى كافة الأصعدة الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها...
- محمد عبابنة، العنصرية وعلاجها من منظور تربوي إسلامي، هذا بحثٌ مقدّم لنيل درجة الماجستير بقسم التربية الإسلامية في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك سنة 1425هـ-2004م، ناقش البحث ظاهرة العنصرية كمشكلة اجتماعية، وتحدث البحث عن الآثار الناجمة عن العنصرية على صعيد الفرد والمجتمع، وذكر الباحث أمثلة ونماذج عنها عند اليهود وفي أمريكا وإفريقيا، وخلص البحث إلى قدرة التربية الإسلامية إلى حلّ جميع مشاكل العنصرية.
- سامر ناجح عبد الله سمارة، آفة العنصرية، المسببات والحلول، دراسة تحليلية في ضوء السنة النبوية، بحث منشور في Proceedings of the 7th International Prophetic Conference (SWAN) 2020، FPQS,Universiti Sains Islam Malaysia, 29-30 October 2020. وهو بحث صغير يعالج موضوع العنصرية أسبابها وعلاجها من خلال السيرة النبوية، وكانت العلاجات مختصرة بشكلٍ مخل، مع التميز بربط بعض نقاط المعالجة بالمصطلحات المعاصرة كموضوع الإعلام وغيره.
- محمد ممدوح شحاتة خليل، التمييز العنصري وأحكامه في الفقه الإسلامي، نشر هذا البحث في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الخامس من العدد الرابع والثلاثين، تعرض البحث

للحديث عن أحكام التمييز العنصري في الفقه الإسلامي، ودور الفقه في القضاء على العنصرية، وعن التشريعات التي ترسي قواعد المساواة بين الناس وتحافظ على حقوقهم وكرامتهم.

- غادة عبد الجليل أحمد الغنيمي، "العنصرية أسبابها ومظاهرها في العالم المعاصر مالكوم إكس نموذجاً"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد الخامس، الجزء الرابع، 2020م، تطرق البحث لمشكلة العنصرية بأمثلة تطبيقية عن وضع التمييز ضد المسلمين باعتبارهم أقليات في البلاد الأوروبية والغربية، خاصة في فرنسا والولايات المتحدة، وكانت الدراسة مدعومة بالشواهد والأدلة.

زيكيو مصطفى، "العوامل المساعدة في بروز ظاهرة العنصرية"، مجلة الدراسات والبحوث الإنسانية، مجلد 7، العدد 1، 2022، تحدث البحث عن الأمور التي تساهم في زيادة العنصرية بين المجتمعات، وتعرض لأمرين مهمين هما؛ خطاب الكراهية الذي تمارسه بعض الأحزاب اليمينية في الغرب، ودور وسائل الإعلام في زيادة العنصرية.

- محمود الزغاوية، "العنصرية في ضوء الآيات القرآنية"، الظاهرة والعلاج، دراسة وتحليل ونقد، وهي رسالة دكتوراة في جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن 2016م، عالجت هذه الرسالة بتفصيل موضوع العنصرية وبواعثه، والعلاج القرآني له، وتطرق للمعالجة بتقسيم جديد، وهو المعالجة القرآنية للعنصرية عند كل قوم من الأقوام، فتطرق لليهود والنصارى، كذلك عند المسلمين، ثم تحدث عن الخطاب القرآني العام لجميع البشر ودوره في معالجة العنصرية.

- عمر عبد القادر، الرؤية القرآنية لمعالجة العنصرية، دراسة موضوعية، وهي رسالة دكتوراة في جامعة أم درمان الإسلامية، السودان 2016م، تحدثت الرسالة عن الرؤية القرآنية في معالجة العنصرية بالتطرق للخطاب القرآني لليهود والنصارى، كذلك لبعض الأحكام الشرعية التي ساهمت في نشر العدل والمساواة.

خطة البحث :

الفصل الأول: سيد قطب وتفسيره "في ظلال القرآن"

المبحث الأول: ترجمة سيد قطب

المطلب الأول: نشأته وتحصيله العلمي.

المطلب الثاني: مساهماته العلمية والسياسية.

المطلب الثالث: محنة سيد قطب.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير "في ظلال القرآن"

المطلب الأول: أهداف الظلال

المطلب الثاني: اللون التفسيري للظلال

المطلب الثالث: المنهج التفسيري لسيد قطب في الظلال

الفصل الثاني: العنصرية مفهومها وأسبابها وأنواعها

المبحث الأول: مفهوم العنصرية ونبذة تاريخية عنها

المطلب الأول: العنصرية لغةً واصطلاحاً

المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن العنصرية

أولاً: العنصرية عند العرب قبل الإسلام.

ثانياً: العنصرية عند اليهود.

المبحث الثاني: أسباب العنصرية وأنواعها

المطلب الأول: أسباب العنصرية

المطلب الثاني: أنواع العنصرية

الفصل الثالث: مبادئ علاج العنصرية في تفسير "في ظلال القرآن"

المبحث الأول: دور العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي في معالجة العنصرية.

المطلب الأول: العقيدة ودورها في معالجة العنصرية

المطلب الثاني: التشريع الإسلامي ودوره في معالجة العنصرية

المطلب الثالث: العدالة الاجتماعية ودورها في معالجة العنصرية





الفصل الأول: التعريف بالمؤلف والتفسير

وفيه مبحثان

المبحث الأول: ترجمة سيد قطب

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نشأته وتحصيله العلمي

المطلب الثاني: مساهماته العلمية والسياسية

المطلب الثالث: محنة سيد قطب

المبحث الثاني: التعريف بتفسير "في ظلال القرآن"

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: أهداف تفسير "في ظلال القرآن"

المطلب الثاني: اللون التفسيري لتفسير "في ظلال القرآن"

المطلب الثالث: المنهج التفسيري لسيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن"

الفصل الأول: التعريف بالمؤلف والتفسير

المبحث الأول: ترجمة سيد قطب

يتطرق هذا المبحث لعرض ترجمة موجزة عن الأستاذ سيد قطب، مع الوقوف على أهم المحطات في حياته من نشأته وتكوينه، مع ما مرّ فيه من تجارب ومحّن إلى وفاته رحمه الله، ثمّ يقفُ البحثُ على تعريفٍ مُختصرٍ لتفسير "في ظلال القرآن"، بذكر أهدافه ومنهج المفسر فيه، وتحت أي أنواع التفسير يندرج.

المطلب الأول: نشأته وتحصيله العلمي:

ولِدَ سيد قطب سنة 1906م، في قرية صغيرة من قرى أسيوط في صعيد مصر، لأسرةٍ مُتوسطة المعيشة، وفي محضن تلك العائلة المستقرة المطمئنة نشأ وترى، قضى سيّد قطب أيامه الأولى في أجواءٍ ساكنة هادئة كان لها أثرٌ واضحٌ على نفسه ومشاعره ووجدانه ومخيلته، التحق بالدراسة فيها مُنذ صغره، وأظهر نبوغاً واضحاً، ساعدت هذه الأجواء في نمو فكر التصوير والتشخيص عند سيد، ظهر ذلك جلياً في أحاديثه وكتاباتهِ، حتى أنّ سيد قطب أَلَفَ كتاباً يتحدّث فيه عن نشأته وحياته سمّاه «طفلٌ من القرية» كتبه على شكل قصة يرويها عن نفسه، تظهر في ثنايا كلماته أثر هذه البيئة في نشأته: "كانت أغاني هؤلاء الناس الشجيّة التي تقطر بالمرارة والأسى في رجولةٍ وتجمل، تستجيش نفس الصبي الصغير وأحاسيسه، فيستمع إليها شبه مسحور، وتجيش في نفسه الصغيرة انفعالات لا يديرها"⁽¹⁾.

والده الحاج قطب إبراهيم، عميدُ أسرة آل قطب، ووالدته من أسرة مرموقة في قريته، يتحدّث سيد قطب واصفاً نفسه وأسرته: "نشأ في أسرةٍ ليست عظيمة الثراء، ولكنها ظاهرة الامتياز"⁽²⁾، عاش سيد قطب في أسرةٍ متدينةٍ كريمة الطباع والخصال، وقد أنشأته والدته على أسباب الرجولة وصفاتها منذ نشأته، راغبةً في إنشاء رجلٍ تعتمد الأسرة عليه، ولذلك أرسلته إلى القاهرة

(1) قطب، سيد، طفل من القرية، الدار السعودية للنشر، الطبعة: بدون، (ص: 167).

(2) المرجع السابق، (ص: 18).

ليتعلم ويرتقي في أسباب المعاش؛ حتى يدخر ما يكفي العائلة مع ضعف حالهم المادي⁽³⁾، فهذان والدا سيد قطب "كان أثرهما واضحاً في مختلف نواحي شخصيته؛ وإننا نحس لمساحتهما التربوية واضحة فيه، لقد غرسا في نفسه الكثير"⁽⁴⁾، فهذه نشأة سيد قطب؛ حيث والدا المربيان والمنزل المطمئن أسباب رئيسة في صياغة الإنسان الصالح المتوازن الذي عاش في أسرة يعمها السكنينة والأمان، أسرة عفيفة من نسب عالٍ زرعت في ابنها خصال الأنفة والعزة التي يترفع بها عن صغار الأمور ويسعى إلى عظامها، إذاً لا يخفى دور هذه النشأة في صياغة سيد قطب الأديب والمفسر.

تحصيله العلمي:

عند بلوغ سيد قطب السادسة من عمره انقسمت عائلته إلى فريقين؛ الفريق الأول يريد منه الذهاب إلى الكتّاب حيث التعليم التقليدي والاهتمام بحفظ القرآن، وهناك تحصل البركة والمنفعة معاً، وفريق آخر يدعو للدراسة النظامية، حيث المدارس أرقى وأنظف، والتعليم بمنهج أفضل، كما تشمل تعليم القرآن إلى جوار علوم أخرى⁽⁵⁾، واستقر الرأي على إرساله إلى المدرسة، ومع التحاقه بالمدرسة تمكن سيد قطب في مطلع العقد الأول من عمره من حفظ القرآن الكريم بحمّة عالية؛ أتم ذلك في ثلاث سنوات، "وقد أفاده حفظ القرآن كثيراً، إذ اتسعت آفاقه، وازدادت ثقافته، وقوّم لسانه، وقوي بيانه، وحسّن أسلوبه، وشقّت روحه، وتفتّحت مداركه، وقد ترك ذلك أثراً واضحاً على شخصيته"⁽⁶⁾ ثم التحق بالمعاهد العلمية فقرأ التفسير على أيدي بعض أساتذته.

أضف إلى هذا النبوغ في التحصيل ولعاً في القراءة وشغفاً بها، فقد كان على سنّه الصغيرة معروفاً بحبّ القراءة والاعتناء بشراء الكتب واستعارتها، حتى أنّ له صلة وثيقة بالعمّ صالح صاحب المكتبة الذي كان يروي ظمأ سيد قطب بتوفير الكتب المتنوعة في مكتبته، ويخصّ سيد قطب بأجود الكتب، ثم تبدأ الحركة الثقافية في القرية، فسيد وغيره ممن له اهتمام بالقراءة وشراء الكتب من العمّ صالح، تبدأ بينهم حركة تبادل ثقافية، حتى يأتي كلُّ قارئ على الكتب المتوفرة في القرية سواء مما اشتراها أو مما تبادلها مع إخوانه.

⁽³⁾ ينظر: الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، الطبعة: الثانية 1414هـ، 1994م، ص: (34)،

الخالدي، صلاح، سيد قطب الشهيد الحي، الدار الشامية، الطبعة: الأولى 1473هـ، 2016م، ص: (103).

⁽⁴⁾ صلاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، (ص: 105).

⁽⁵⁾ يُنظر: سيد قطب، طفلٌ من القرية، (ص: 22)

⁽⁶⁾ صلاح الخالدي، الشهيد الحي، (ص: 126)

غادر سيد قطب قريته تجاه القاهرة سنة 1921م، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية، درس فيها مدة ثلاث سنوات، لم يكتفِ سيد قطب بالدراسة النظامية في المدارس؛ بل زادَ عليها بجهْدٍ فرديٍّ محصولاً ثقافياً أفاده في سعة أفقه ورشاقة عبارته وحُسن أسلوبه، فقد كان شغوفاً مُحباً للقراءة وشراء الكتب، ثمَّ التحق بالدراسة الجامعية في دار العلوم سنة 1925م تلقى فيها علوماً شتى من أدبٍ وجغرافيا وعلوم تربية، تخرج سيد منها عام 1929م، ثمَّ أتمَّ دراسته في كلية دار العلوم أربع سنواتٍ أخرى، تلقى خلالها علوم العربية من نحوٍ وصرفٍ وأدبٍ وبلاغةٍ، وعلوم الشريعة من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ، وعلوماً أخرى كالجغرافيا وعلم الاجتماع والتربية والفلسفة، ليحصلَ على إجازة في الآداب مع دبلوم في التربية.⁽⁷⁾

برز سيد قطب في الجانب الأدبي، فكتب الشعر والمقالات الأدبية والنقدية، ونشر كثيراً منها في الصحف والمجلات.... وكان سيد قريباً من أستاذه مصطفى العقاد معجباً بأسلوبه وعبقريته الفذة، مدافعاً عن منتجاته الأدبية مُعظماً لها، ثمَّ تفرد بريادة مدرسةٍ أدبيةٍ جديدةٍ لها أسسها ومنهجها في الأدب والشعر والفن والنقد، وكان بإمكانه أن يعتني بهذه المدرسة ويرسي لها قواعدها من خلال براعته، إلا أنَّه انصرف عنها لاهتماماتٍ أخرى، حيثُ سلك طريقاً جديداً وجد فيه سيد قطب المفكر والباحث والمفسر⁽⁸⁾.

(7) سيد قطب، نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، الدار السعودية للطباعة والنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الأولى 1389هـ،

1969م، ص: (65).

(8) ينظر: صلاح الخالدي، الشهيد الحي، ص: (157).

المطلب الثاني: مساهماته العلمية والسياسية

بدأت مساهمات سيد قطب العلمية والفكرية على شكل مقالات تنشر في المجلات، كانت أول مقالة تنشر له في صحيفة البلاغ اليومية سنة 1922م وله من العمر ستة عشر عاماً⁽⁹⁾، أو عن طريق كتابة الشعر وإلقاء المحاضرات التي تلقى في الجامع الأدبية، منها ما كان طرفاً في المعركة الأدبية التي دارت بين عباس العقاد ومصطفى صادق الرافعي، حيث كان سيد قطب إلى طرف العقاد في مسألة إعجاز القرآن، ثم تفرّد سيد قطب بنشر مقالة بعنوان التصوير الفني في القرآن في مجلة «المقتطف»⁽¹⁰⁾، ومن الأبحاث التي أعدّها سيد قطب وألقاها كمحاضرة بحث بعنوان "مهمة الشاعر في الحياة وشعراء الجيل الحاضر" وهو أول مؤلف له، "كان سيد قطب أكثر من الكتابة في الصحف والمجلات، يكتب في صحف يومية، ومجلات وصحف أسبوعية، يكتب نثراً ونظماً، ويكتب مقالات أدبية ونقدية، أو تربوية، أو اجتماعية، أو سياسية"⁽¹¹⁾.

من المجلات التي كتب فيها سيد قطب: مجلة البلاغ، الأهرام، المقتطف، كوكب الشرق، الرسالة، الثقافة، دار العلوم، الكاتب المصري، الكتاب، الشؤون الاجتماعية، كما أشرف على مجلتي: الفكر الجديد، والعالم العربي، ثم أشرف كما سيأتي على مجلة الإخوان المسلمين.

كما ترأس سيد قطب رئاسة التحرير في مجلة الإخوان المسلمين، والتي تعدّ أهم منابر الجماعة سنة 1954م، كانت مجلة أسبوعية، لكنّها لم تلبث أن توقفت بعد صدور اثني عشر عدداً منها على يد الحكومة المصرية آنذاك بعد زيادة الخلافات بينها جماعة الإخوان المسلمين.

في ختام الحديث عن بعض مساهمات سيد قطب في مجال الكتابة في المجلات، نورد ما وصل له الأستاذ عبد الباقي حسين من قائمة ببلوغرافية لمقالات سيد قطب، حيث أعدّ إحصائية نتيجتها: "بلغ عدد القصائد والمقالات التي وقف عليها الباحث أربعمئة وخمسين 455 مقالة وقصيدة"⁽¹²⁾.

⁽⁹⁾ ينظر: صلاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص: 93).

⁽¹⁰⁾ فدعق، أسماء بنت عمر، منهج سيد قطب في ظلال القرآن، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المجلد الأول، ص: (91)

⁽¹¹⁾ صلاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص: 94).

⁽¹²⁾ صلاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص: 108). نقلاً من كتاب: عبد الباقي حسين سيد قطب حياته وأدبه، ولم أقف على نسخة متوفرة منه.

أما ما يتعلق بالكتب فليسيد قطب عدة مؤلفات، منها ما كان بداية تكوينه العلمي والأدبي، ومنها ما كان خلاصة تجاربه ومعارفه، بلغ عدد كتبه ستة وعشرين كتاباً، "تأخر سيد في تأليف الكتب ونشرها، حيث أمضى حوالي عشرين سنة من حياته الأدبية يكتب المقالات والقصائد، وبعد أن آنس من فكره نضجاً صار ينشر الكتب"⁽¹³⁾، كتب سيد قطب «طفل في القرية» كسيرة ذاتية يتحدث فيها عن نفسه، وقد طوّر إحدى مقالاته لتظهر في كتاب نقدي سمّاه «مهمة الشاعر في الحياة».

وفي سياق الفكر الإسلامي ألف سيد قطب كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» تناول فيه طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام وأسسها التي تقوم عليها، ووسائل الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية، كما تطرّق لسياسة الحكم والمال في الإسلام، ومن أوائل الكتب التي ولج فيها سيد قطب إلى القرآن وبيانه كتاب «التصوير الفني في القرآن»، يقول سيد قطب: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يُعزّز بالصورة المحسنة المتخلية عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة"⁽¹⁴⁾.

صدر لسيد قطب عدّة كتب تخصّ المعركة الحضارية التي تخوضها الأمة، جسّد ذلك في «معركة الإسلام والرأسمالية»، ثمّ أتبعه بكتاب «السلام العالمي والإسلام»، قدّم فيه ملامح السلام العالمي الذي ينشده الإسلام، كما صدر له كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة»، الذي يستعرض فيه المشكلات الحضارية التي نتجت بعد تفوق الحضارة الغربية، ثم يقدّم الحلّ الإسلامي لهذه المشكلات، ومن آخر الكتب التي خطّها آخر حياته كتاب «خصائص التصور الإسلامي»، وهي سبعة كما ذكرها: "الربانية، الثبات، الشمول، التوازن، الإيجابية، الواقعية، التوحيد".

وأخيراً نذكر كتابه «معالم في الطريق»، والذي كتبه منهجاً لعمل الحركة الإسلامية، وبياناً لطريق الدعوة إلى الله، وقد اعتمد هذا الكتاب منهجاً في عمل جماعة الإخوان المسلمين، وقد رافق صدور هذا الكتاب جدل واسع؛ وهو جدل مستمرّ إلى هذا اليوم، وسبب هذا أن جماعة "خرجوا من المعالم بأقوال غريبة، وأفهام خاطئة، وتأويلات باطلة، وتبنوها وجعلوها مناهج لهم في الدعوة والعمل، ونسبوا إلى سيد قطب"⁽¹⁵⁾، هذه المغالطة التي وقع فيها كثير من القراء لكتاب «معالم في الطريق» كما وصفهم الدكتور صلاح الخالدي.

(13) الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص: 521).

(14) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة السابعة عشر 1425هـ، 2004م، (ص: 36).

(15) صلاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص: 557).

أما أشهر كتبه وأعظمها، فهو كتاب «في ظلال القرآن»، وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم يقع في عدة أجزاء، وهو موضوع بحثنا، سنقف معه في مطلبٍ مستقل.

مشاركاته السياسية

ورث سيد قطب عن والده النشاط السياسي، فقد كانت تعقد في بيتهم ندوات سياسية، وكان والده عضو في لجنة الحزب الوطني في قريتهم، وشبَّ سيد قطب على متابعة الأحداث وقراءة الجريدة السياسية كلَّ يوم والاطلاع على التحليلات السياسية، كما خاض غمار الحراك السياسي إبان ثورة 1919م؛ فكتب الخطب الثورية وألقاها في المساجد، وقد كان كثيرٌ منها من كتابته.

اهتمَّ سيد قطب بالتحليل السياسي للوضع العالمي آنذاك، وعمل على نقد الحضارة الغربية الاستعمارية المنتصرة بعد الحرب العالمية الثانية، فعملَ جاهداً على إيقاظ العالم الإسلامي وتحذيره مما يحاك ضده، فقد بدأ بنقد الشيوعية وأباطيلها، وبينَّ غايات الاستعمار الأمريكي والرأسمالية العالمية؛ ظهر ذلك جلياً في مقالاته في مجلات «الرسالة» و«العالم العربي» و«الفكر الجديد»، وعناوين كتبه «معركة الإسلام والرأسمالية» و«السلام العالمي والإسلام» وغيرها.

لم يغفل سيد قطب عن الوضع الداخلي لمصر في عصره، بل كان مشاركاً في أهمِّ الأحداث التي عاصرها، إمّا بالكتابة أو النقد أو الخطابة، اشتهر بمقالاته السياسية عن الوضع في مصر "تحدَّث فيها عن الاحتلال الإنكليزي لمصر، وعن فشل الأحزاب السياسية في مصر في نهضة المجتمع وتحرير البلاد، كما تحدث عن مشكلات العالم العربي الأخرى، مثل قضية فلسطين"⁽¹⁶⁾.

كان سيد قطب عضواً في حزب الوفد، وهو حزبٌ شعبي أسسه سعد زغلول، وبعد عدة سنوات انتقل إلى حزب السعديين نسبةً إلى سعد زغلول المؤسس الأول لحزب الوفد بدعوى أنَّ الحزب خرج عن جادة الصواب، وفي سنة 1945م تخلَّى سيد قطب عن الانتماء الحزبي، وبدأ يرفع صوته محذراً قادة الأحزاب في مصر من خروج أحزابهم عن تحقيق طموحات الشعب المصري، والضعف الذي وقعت فيه قيادة الأحزاب المصرية والذي جعلها ترى في إنكلترا الدولة التي لا تقهر⁽¹⁷⁾.

(16) صلاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، (ص:300).

(17) ينظر: صلاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:267).

انضم سيد قطب إلى جماعة الإخوان المسلمين عام 1953م، ويظهر بوضوح نزعة سيد قطب نحو العمل الإسلامي والحركي في هذه المرحلة، فهي أكثر المراحل مشاركة وكتاباً وخوضاً للمعارك الفكرية والسياسية، فقد أسند لسيد قطب إصدار جريدة الإخوان المسلمين، وألقى عدداً من الكلمات في عدة مؤتمرات ولقاءات عربية ودولية، كمؤتمر "الدراسات الاجتماعية" في دمشق، وحضر في القدس كممثل عن الإخوان في المؤتمر الإسلامي الشعبي⁽¹⁸⁾.

"من أبرز ما جرى له في هذه المرحلة، إدخاله السجن مع العديد من أفراد جماعة الإخوان المسلمين عام 1954م، حيث عُذِّبَ مع إخوانه تعذيباً رهيباً بشعاً...، وأصدرت المحكمة عليه حكماً بالسجن خمسة عشر عاماً، قضى منها حوالي عشر سنوات ثم أخرج بعفو صحي عام 1964م"⁽¹⁹⁾.

خرج سيد قطب من السجن وهو القائد الفكري لتنظيم الإخوان المسلمين سنة 1964م⁽²⁰⁾، إذ باتت مؤلفات سيد قطب هي المنهج المتداول بين شباب الجماعة وغيرها من الإسلاميين المتحمسين للعمل الحركي، ولم يعد لمنصب سيد قطب أهمية في نظر الشباب المصري بقدر التراث الفكري الذي تركه.

(18) الخالدي، صلاح سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:282).

(19) الخالدي، صلاح سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:282).

(20) سيد قطب، طفل من القرية، ص: (125).

المطلب الثالث: محنة سيد قطب

تعرض سيد قطب لمضايقات أمنية كثيرة بسبب نشاطه ومواقفه وكتاباتاته، حين كان رئيس التحرير في جريدة الإخوان المسلمين، والتي أغلقت إثر ثورة 1954م، أودع في السجن عدة مرات أولها سنة 1954م، مع عددٍ من جماعة الإخوان المسلمين منهم المرشد العام للجماعة حسن الهضيبي؛ ذلك إثر تفاقم الخلاف بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين، إلى أن وصل الأمر بحل جماعة الإخوان المسلمين.

أفرجت الحكومة المصرية عن أعضاء جماعة الإخوان المسلمين ورضخت للمطالب والمظاهرات الشعبية التي طالبت بإطلاق سراحهم، عاد الإخوان لنشاطهم، وعاد سيد قطب إلى إصدار جريدة الإخوان المسلمين، "ولما زادت شقّة الخلاف بين الإخوان وعبد الناصر، صارَ الإخوان يصدرّون نشرات سرية، يوردونَ فيها الأخبار السرية لتلك الخلافات والاحتكاكات مع عبد الناصر، ويسجلون فيها الكثير من التحليلات والنظرات والتعليقات، وكان لسيد قطب دورٌ كبيرٌ في كتابة تلك التحليلات والتعليقات"⁽²¹⁾.

ثمَّ حاك عبد الناصر عملية اغتيالٍ مزعومة اتهم جماعة الإخوان المسلمين بتدبيرها، قامت الحكومة على إثرها بحملة اعتقالات واسعة شملت الآلاف من الإخوان المسلمين وأودعتهم السجون منهم سيد قطب، وشكلت لهم محاكم عسكرية سُميت محكمة الثورة، وبعد عامٍ من السجن ساءت حالته الصحية، بسبب التعذيب الذي وقع عليه أولاً، وبسبب أثر السجن على صحته، ومع هذه الحالة الصحية المتردية وعدم تمكنه من حضور جلسات المحاكمة، أخذت المحكمة قراراً بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً.

أصيب سيد قطب خلال فترة سجنه بنزيفٍ رئوي حاد، ظهرت آثار التعذيب على جسده، وأصيب بدحة صدرية، وعانى من آلام الروماتيزم في معظم أعضاء جسده، ومع هذا الوضع الصحي المتردي نُقل لمستشفى سجن طرة قضى فيها ما يقارب تسع سنوات، وبسبب سوء حالته الصحية أفرج عنه بعفوٍ صحي إثر انهيارٍ حادٍ في صحته سنة 1964، مع شفاعة من الرئيس العراقي آنذاك عبد السلام عارف، خضع سيد قطب للعلاج بعد خروجه من السجن، لكنَّ صحته تدهورت وأمراضه تضاعفت⁽²²⁾.

(21) الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:346).

(22) ينظر: الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:363).

لم تلبث الحكومة المصرية أن أعادت اعتقال سيد قطب من جديد وساقته إلى السجن الحربي، والتهمة الآن الإعدام لانقلاب مسلح، أمضى هذه المرة عاماً جديداً في السجون المصرية، وتعرض لمعاناة وألوان من التعذيب ما لا يطيقه جسدٌ منهكٌ بالأمراض⁽²³⁾.

"وقد كان سيّد في سجنه موضع احترام المسجونين من الإخوان وغيرهم، حتى إنّ المسجونين العاديين كانوا يُقدّرونه ويستشيرونه....، كذلك كان السجنانون يحترمون سيد ويقدرونه....، كان سيّد يعامل من معه في السجن ولو كانوا سجنّانين بأخلاقٍ إسلامية عظيمة، فملك قلوبهم"⁽²⁴⁾.

قُدِّم سيد قطب لمحاكمة صورية جديدة بعد أشهرٍ من التحقيق، لم تراخِ هذه المحاكمة كرامة الأستاذ ووهن العظم عنده، وخرجت المحكمة بجملة من الاتهامات ما جعلت سيد قطب يتوقع إصدار حكم الإعدام عليه، وبالفعل أصدرت المحكمة بعد أربعة أشهرٍ من المحاكمة يوم الأحد 1966/8/21م حكماً جائراً في حقِّ ثلاثة وأربعين متهماً على رأسهم سيد قطب؛ حُكم على سبعةٍ منهم بالإعدام، وعلى خمسةٍ وعشرين بالسجن المؤبد⁽²⁵⁾.

أثار حكم الإعدام ضجةً في مصر والعالم الإسلامي، وتدخلت كثيرٌ من الشخصيات في وساطة مع الحكومة المصرية للتراجع عن أحكام الإعدام أو تخفيفها، "واتصل أناسٌ من الإخوان المسلمين ببعض المسؤولين في البلاد العربية ليتوسّطوا لدى عبد الناصر حتى يخفف عن سيّد حكم الإعدام، وكان ممن توسط لدى عبد الناصر الملك فيصل بن عبد العزيز"⁽²⁶⁾.

دخلت الحكومة المصرية في سوق مساومة مع سيد قطب، تحاول ثنيه عن منهجه وثباته، وتطلب منه اعترافاً بارتباط جماعته بجهةٍ خارجية، استخدمت في سبيل ذلك أساليب شتى، منها أنهم استعانوا بزيارة أخته حميدة الأخيرة له قبيل الإعدام لإقناعه بتعديل كلامه وتغيير تصريحاته مقابل إلغاء حكم الإعدام، لكنّ سيد ليس بذلك الذي تغريه الحياة، ولا تنفع معه المساومات، تقول حميدة: "ذهبت إلى شقيقي وسلمت عليه وبلغته ما يريدون منه، فنظرَ إليّ ليرى أثر ذلك على وجهي وكأنه يقول: أنت

⁽²³⁾ العظم، يوسف، رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب حياته ومدرسته وآثاره، دار القلم، الطبعة: الأولى 1400هـ، 1980م، (ص:41).

⁽²⁴⁾ الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:366).

⁽²⁵⁾ يوسف العظم، رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب، (ص:41).

⁽²⁶⁾ الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:468).

التي تطلبين أم هم؟ واستطعت أن أفهمه بالإشارة أنهم هم الذين يقولون ذلك، وهنا نظر إليّ وقال: والله لو كان هذا الكلام صحيحاً لقلته ولما استطاعت قوة على وجه الأرض أن تمنعني من قوله، ولكنه لم يحدث، وأنا لا أقول كذباً أبداً⁽²⁷⁾.

لم تجد محاولات نبي سيد قطب عن موقفه شيئاً، وفي يوم 1966/8/29م سيق سيد قطب لتنفيذ حكم الإعدام، وهذه هي الخاتمة التي تنتظر العامل مع الله زمن المحن، ذلك أنه لما طُلب منه الاعتذار مقابل إطلاق سراحه قال: "لن أعتذر عن العمل مع الله"⁽²⁸⁾.



(27) الغزالي، زينب، أيام من حياتي، المصدر: <http://www.tawhed.ws/>، الطبعة: بدون، (ص:39).

(28) الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص:474).

المبحث الثاني: التعريف بتفسير في ظلال القرآن

يأخذُ تفسيرُ في ظلال القرآن موقعاً بارزاً في المكتبة الإسلامية، ويختار المصنّف في مناهج المفسرين تصنيف هذا الكتاب على أي باب، حيثُ عاش المؤلف مع القرآن تجربة خاصة بدأت بعد مخاض عاشه في ظلال الأدب العربي شعره ونثره، تفرغ بعد هذه المرحلة للحياة مع القرآن، وأعطى كُلَّ طاقته للقرآن وعاش في ظلاله حتى خرج حتى خرج إلينا بهذا الكتاب الذي كان خلاصة حياته هو أولاً مع القرآن والذي سمّاه «في ظلال القرآن»، هذا الاسم الذي يصريح المؤلف بنفسه أنّه لم يتكلف صياغته: "عنوان لم أتكلفه، فهو حقيقةً عشتها في الحياة،.... فبين الحين والحين أجد في نفسي رغبةً خفيةً في أن أعيش في ظل القرآن فترة، أستروح فيها ما لا أستروحه في ظلّ سواه"⁽²⁹⁾.

ما الذي يريده سيد قطب من هذا العنوان؟ "إنّه يريد أن يقول لنا من خلال عنوانه: إنّ آيات القرآن الكريم لها ظلال وارفة وراء معانيها، وهذه الظلال فيها كثير من إجماعات القرآن ودلالاته وتوجيهاته التي لا بدّ من الالتفات إليها وملاحظتها، وهذه الإجماعات والتوجيهات والدلالات لا تُدرك إلا من خلال ملاحظة ظلال الآيات، ولا يلاحظها إلا باحث متدق، يلحظها بحبّه البصير، وخياله العامل، وتعرضه لتلك الظلال، وحياته بما ومعها وفيها"⁽³⁰⁾.

وللباحث فتحي بودفلة رأي في سرّ اختيار سيد قطب لهذا العنوان يقول: "المدلول اللغوي فلعله قصد بالظلال ذلك الشعور الذي نتج عن طول ملازمته للقرآن الكريم أو لعل ورعه هو الذي دفعه إلى تجنب التعبيرات المباشرة كتفسير القرآن أو تأويله أو في خضمه أو كنفه أو معه أو وسطه أو فيه إلخ ... فكأنّ الظلال هو ما يشعر به من ملازمة القرآن وكأنّ سيد يتناول بالدراسة هذه الظلال لا عين القرآن وذاته"⁽³¹⁾، وهذا رأي له حظّ من النظر، حيثُ لا نرى سيد قطب يهتمّ بالجانب التفسيري للمعاني أو للأحكام، كذلك يتعدّد عن كثرة النقولات والروايات في الأسباب وغيرها، فهو أراد أن نعيش معه ما يعيشه هو في ظلال القرآن.

(29) في ظلال القرآن، الطبعة الأولى، 5/1، نقلاً الخالدي، صلاح، مدخل إلى ظلال القرآن، دار عمار، الطبعة: الثانية:

1421هـ، 2000م ص84.

(30) الخالدي، صلاح، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (90).

(31) بودفلة فتحي، دلالات عنوان " في ظلال القرآن " لسيد قطب. مقال منشور على الشبكة 2010 - [https://al-](https://al-maktaba.org/book/31871/21741)

[maktaba.org/book/31871/21741](https://al-maktaba.org/book/31871/21741)

وكذلك كان؛ حيث عاش المؤلف بين آيات القرآن متذوقاً لجمال العبارة وبراعة الأسلوب وإعجاز النظم، كما عاش بين صياغة القرآن للتصورات الإسلامية، وصناعة الآيات للشخصية الإسلامية، عاش بين هذه المعاني سنين عديدة، وأخرج لنا تفسيره الذي بين أيدينا.

وعن أسلوبه في استعراض الآيات يقول الدكتور صلاح الخالدي: "عرض نماذج من آيات القرآن بيّن فيها وظيفة الصور والظلال في دلالة الألفاظ، كذلك عرض نماذج قرآنية وبيّن فيها وظيفة الصور والظلال والإيقاع في العبارة، ومقدار اشتراكها كلها في الدلالة الأدبية، وفي تصوير الجو العام لآيات القرآن، والإطار العام الذي عرضت من خلاله"⁽³²⁾.

ولذلك أراد الأستاذ سيد قطب أن يعيش مع القرآن بشكل مباشر، دون التأثر بمقررات سابقة، ومتجنباً كل ما يحجب روح القرآن وحقيقته عن القارئ، كما أنه تجنب الخوض في المواضيع الكلامية ولن يغرق في بيان الأحكام الفقهية ولا المباحث اللغوية، كل ذلك حتى يبقى اتصال القارئ بالنص القرآني مستمراً⁽³³⁾، لذلك كثرت وقفاته ليسجل دلالة النصوص القرآنية وإحجاءاتها، فهذا هو المقصود الأول من الظلال، أن يتفياً القارئ بين معاني الآيات ودلالاتها، وينعم تحت ظلال القرآن. "كما كان يقف ليعترف بعجزه عن تسجيل كل ظلال النصوص القرآنية ولهذا يتركها كما هي، أو التعليق على بعض المشاهد التي ترسمها النصوص، فيتركها كما هي أيضاً، كما يسجل انفعاله ببعض النصوص والمشاهد وتأثيرها على مشاعره وكيانه"⁽³⁴⁾.

المطلب الأول: أهداف تفسير "في ظلال القرآن".

يظهر جلياً أنّ للمؤلف هدفاً من تأليف الظلال يختاره لنفسه، فهو لا يريد تكرار شيء في المكتبة الإسلامية، ولا إضافة ورقات تأخذ حجماً من غير قيمة أو أثر، "لم يجعل التفسير غايةً بحدّ ذاته، وإنما جعل التفسير وسيلةً لغاية شريفة، وأداةً لأهداف سامية، أراد تحقيقها في عالم الفكر والتصور، وفي عالم التربية والحركة"⁽³⁵⁾.

كان سيد قطب يقف ليعترف بعجزه عن تسجيل كل ظلال النصوص القرآنية؛ فلا تفي الكلمات بالتعبير عمّا يخالج النفس منها، ولهذا يتركها كما هي، أو يعجز عن التعليق على بعض المشاهد التي ترسمها النصوص، فيتركها كما هي أيضاً.

(32) الخالدي، صلاح، مدخل إلى ظلال القرآن، ص 89

(33) ينظر: بودفلة فتحي، المعالم المنهجية الكبرى في تفسير سيد قطب. مقال منشور على الشبكة 2010

<https://mtafsir.net>

(34) صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (92).

(35) صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (93).

فأهداف تفسير الظلال التي سعى إليها سيد قطب، وظهرت واضحةً في سياق حديثه وثنائيا كلماته، نوجزها فيما يأتي:

أولاً: إزالة الفجوة العميقة بين المسلمين المعاصرين وبين القرآن الكريم⁽³⁶⁾: يعمل الظلال على تعريف المسلمين بكنوز القرآن وتصويراته لتحقيق الاستجابة المرجوة منه، لم تكن غاية المؤلف أن يصبح الظلال غاية في ذاته عوضاً عن القرآن الكريم، بل وسيلة إليه، يقول عن ذلك: "وإنني لأهيب بقاء هذه الظلال، ألا تكون هي هدفهم من الكتاب. إنما يقرأونها ليدنوا من القرآن ذاته، ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته، ويطرحوا عنهم هذه الظلال، وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته"⁽³⁷⁾ فالظلال استجابة لما يحتاجه المسلم المعاصر من تقريب الألفاظ وتصوير المشاهد وإيقاظ المعاني في القلوب.

ثانياً: تعريف المسلمين المعاصرين على المهمة العملية الحركية للقرآن الكريم⁽³⁸⁾: وذلك ببيان طبيعة القرآن الحية والحركية في حياة الإنسان، والطريق التي يجب عليهم السير فيها، قرآنٌ حيٌّ يدعو للحركة والحيوية في مواجهة الجاهلية سابقاً ولاحقاً، يصرح بذلك قائلاً: "والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون. يدرسون دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة"⁽³⁹⁾، قرآنٌ يخوض غمار الحياة ليحكمها، لم يُنزل للبركة أو التلاوة في المآتم فقط، بل ليواجه الجاهلية المعاصرة مواجهةً عمليةً.

ثالثاً: تزويد المسلم المعاصر بدليل عملي مكتوب إلى سمات الشخصية الإسلامية المنشودة، فهو يركز على الجانب العملي لمعاني الآيات، لا يغرق في التفسيرات اللغوية والفقهية والتاريخية، فهو يبحث عن إضافةٍ يجدها منقوصةً في حياة الناس، وهي العمل بالقرآن والتعامل مع آياته معاملة المخاطب اليوم لا معاملة القصة والنص الأدبي أو التاريخي.

رابعاً: تربية المسلم تربيةً قرآنيةً إسلاميةً متكاملة، من خلال صياغة شخصية المسلم صياغةً مؤثرة⁽⁴⁰⁾؛ وذلك بتمليكه مفتاح التعامل مع القرآن والوقوف على ثرواته، وهي تربيةً متكاملةً تُهيأ فيه نفسه وعقله وروحه وشخصيته وجسده، لتخرج المسلم

(36) ينظر: صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (100).

(37) قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق-بيروت، الطبعة: السابعة عشر 1412هـ، ص: (4/ 2039).

(38) ينظر: صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (100).

(39) في ظلال القرآن (4/ 1864).

(40) ينظر: صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (103).

الناضج روحياً وعقلياً لمواجهة الواقع، "القرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه. بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطئ ويصيب، في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح"⁽⁴¹⁾.

خامساً: بيان ملامح وسمات المجتمع الإسلامي الذي يُنشئه القرآن الكريم⁽⁴²⁾، ورسم الطريق الحركي له، واستنهاض همم العاملين له، "المنهج القرآني في تربية الجماعة المسلمة وإعدادها لدورها الذي قدره الله لها كما تشير إلى مقومات هذا المنهج والمبادئ التي يريد تقريرها في النفس المسلمة"⁽⁴³⁾، وذلك من خلال التعريف بالمجتمع الإسلامي الأول الذي أقامه النبي صلى الله عليه وسلم، هذا المجتمع الذي عاش القرآن واقعاً عملياً في حياته كلها، ولا نجاة لمسلمي اليوم إلا بعودة القرآن إلى مكانته.

سادساً: بيان معالم الطريق الذي تسلكه الجماعة المسلمة إلى ربها⁽⁴⁴⁾: لقد كان الجيل الأول الذي أقامه النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً واضحاً لما ينبغي على الجماعة المسلمة العمل به، فالقرآن هو منارة ذلك الجيل، والمعركة بين الإيمان والكفر معركة عقيدة، "المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة. منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة"⁽⁴⁵⁾.

سابعاً: بيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم: يُقرُّ المؤلف بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم كاملاً من خلال ترابط السور وتكامل أهدافها، والوحدة الموضوعية في كلّ سورة على حدة، إذ لكل سورة شخصية متناسقة متكاملة، "والسورة كلها وحدة متكاملة متناسقة الإيقاعات والظلال"⁽⁴⁶⁾، مع ترابط واضح بين أجزائها وموضوعاتها المتعددة والذي يدلُّ على الوحدة الموضوعية للسورة، أدرك المؤلف بعد ملاحظة الوحدة الموضوعية للقرآن الأغراض الأساسية والأهداف العملية منه، وأخذ يُبينها من خلال تفسيره، فالقرآن يربي المسلم صاحب الفكر والعقيدة الذي يعمل ويتحرك دوماً من خلالها.

(41) في ظلال القرآن (1/ 181).

(42) ينظر: صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (105).

(43) في ظلال القرآن (2/ 907).

(44) ينظر: صلاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص: (108).

(45) في ظلال القرآن (1/ 34).

(46) في ظلال القرآن (1/ 547).

ثامناً: الوقوف في وجه المادية الجاهلية المعاصرة: وذلك بنقد مبادئها وبيان زيفها وتعرية حقيقتها، إذ إن بعض المسلمين المعاصرين يعانون من هزيمة ثقافية ووقوع تحت سطوة الهالة المادية التي يمتلكها أعداء الإسلام، إذ لا تعدو هذه المادية أن تكون ذرةً في بحر الخلق وملك الخالق عزَّ وجلَّ، "تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالبطائر الذي يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيبض، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله، وهو وحده العلاج والدواء"⁽⁴⁷⁾ وهذه الحقيقة غائبة عمَّن ينخدعون بالمظاهر المادية الساحرة للأعين.

المطلب الثاني: اللون التفسيري لتفسير "في ظلال القرآن"

إنَّ الناظر في تفسير سيد قطب يحاُز في تصنيفه على أي لونٍ من ألوان التفسير، فإذا أردته من باب التفسير بالمأثور فهو كثيراً ما يعتمد على آيات القرآن يفسِّر بعضها بعضاً، ويقول بالوحدة الموضوعية للآيات فهو يربط بينها ربطاً عجيباً، يقول سيد قطب عن اعتماده على القرآن نفسه في التفسير: "إنني لم أجد نفسي مرة واحدة- في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية- في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن- فيما عدا قول رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهو من آثار هذه القرآن- بل إن أي قول آخر ل يبدو هزياً- حتى لو كان صحيحاً- إلى جانب ما يجده الباحث في هذا الكتاب العجيب"⁽⁴⁸⁾؛ نعم فهو كما ذكر لا تراه يُكثر من نقل الأقوال وتحقيق المسائل، بل يكتفي ببيان ارتباط الآيات ووضوح المعاني مع توجيهها للغايات الكبرى للقرآن الكريم.

أظهر صيغة رآها المتكلمون في مناهج التفسير على الظلال هي صبغة التفسير الاجتماعي⁽⁴⁹⁾، فكثيراً ما يهتُم سيد قطب في كتابه بالجانب الاجتماعي، ويركز على جوانب البناء القرآني للمجتمع المسلم والجماعة المسلمة والفرد المسلم، وكيف يتخلص هذا المجتمع من رواسب الجاهلية، يقول سيد رحمه الله: "يتعرض السياق لإقامة قواعد النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي يريد

(47) في ظلال القرآن (1/ 17).

(48) في ظلال القرآن (3/ 1423).

(49) جعفر، عبد الغفور محمود مصطفى، التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، دار السلام، الطبعة: الثانية، 1433هـ،

2012م، ص: (774)

الإسلام أن يقوم عليها المجتمع المسلم وأن تنظم بها حياة الجماعة المسلمة"⁽⁵⁰⁾، المجتمع المسلم المنشود له نظيره من المجتمع الذي أقامه النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، ويقول الدكتور فهد الرومي عن هذا اللون من التفسير: "اتجهت طائفة من المفسرين يعتنون بهذه الآيات ويتوسعون في تفسيرها طالبين علاج مشكلات مجتمعاتهم، فينظر المفسر إلى مجتمعه نظرة الطبيب الفاحص يلتمس داءه، ويتعرّف على علّته، حتى إذا عرفه نظر في القرآن يطلب الدواء والعلاج، فإذا وجده توسّع في شرحه وبيانه، وحثّ قومه على التزامه فنشأ بهذا لون من ألوان التفسير وهو الإصلاح الاجتماعي"⁽⁵¹⁾ وهذا يصدّق على تفسير سيد قطب وسيرته، فهو ممّن سعى قولاً وفعلاً لتغيير واقع المجتمع الذي عاصره، وخاض تجربة أدبية ودعوية وسياسية طويلة، تصدر خلالها المشهد في مصر، وكانت له كلمته في أكبر الجماعات الدعوية والسياسية فيها، انتهت به إلى مواجهة مع السلطة المصرية إلى السجن مدة طويلة ثمّ الحكم بالإعدام.

لقد سعى سيد قطب من خلال تفسيره في ظلال القرآن ومن خلال كتاباته الأخرى على رأسها معالم في الطريق إلى السعي في الإصلاح المجتمعي، من خلال رسم الصورة التي أرادها القرآن لبناء المجتمع المسلم المتخلص من أعمال الجاهلية ورواسبها، وبيان البعد الواقعي للآيات القرآنية.

يرى الدكتور صلاح الخالدي أنّ منهج سيد قطب في التفسير منهجٌ حركيٌ دعوي تربوي؛ حركيٌ لأنه يدعو إلى تنزيل القرآن إلى عالم الواقع وعدم الاكتفاء بالدراسة النظرية، دعويٌّ لأنّ القرآن منطلق الدعوة ومصدرها وموجهها، تربويٌّ لأنّه يربي المجتمع المسلم على القرآن، ويصوغهم بالملامح الإسلامية الصافية⁽⁵²⁾.

سيد قطب واللون الأدبي في التفسير:

لا يخلو تفسير الظلال من صبغة أدبية واضحة، ذلك أنّ المؤلف أديبٌ بليغ، وشاعرٌ مرهف، وقد كان له قبل الظلال كتاب التصوير الفني في القرآن، تناول فيه دراسة القرآن دراسةً بيانيةً أدبية، فجاء الظلال معبراً عن لغة المؤلف وعمق إحساسه

(50) في ظلال القرآن (1/ 304).

(51) الرومي، فهد، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، الطبعة: الرابعة 1419هـ، ص: (105).

(52) ينظر: الخالدي، صلاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم-دمشق، الطبعة: الثالثة: 1429هـ، 2008م، ص: (606).

بالكلمات القرآنية، فغاص في توضيح التصويرات القرآنية وعظمتها⁽⁵³⁾، "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس، والمشاهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة"⁽⁵⁴⁾ وقوله بالوحدة الموضوعية إنما هو استحضر وإثباتاً لارتباط النصّ القرآني ببعده ببعضٍ وبياناً للتناسب بين سوره، والتناسق الفني فيه، "عرض نماذج من آيات القرآن بيّن فيها وظيفة الصور والظلال في دلالة الألفاظ، كذلك عرض نماذج قرآنية وبيّن فيها وظيفة الصور والظلال والإيقاع في العبارة، ومقدار اشتراكها كلها في الدلالة الأدبية، وفي تصوير الجو العام لآيات القرآن، والإطار العام الذي عرضت من خلاله"⁽⁵⁵⁾، "وكان حريصاً على أن ينقل إحساسه الداخلي وتذوقه الخاص للمستمع، وكان يقف عند اللفظة القرآنية فيحللها ويتذوق معناها، ثمّ يحاول أن ينقل هذا الإحساس الداخلي إلى القارئ، ويستعين على ذلك بمقدرة لغوية فذة".

عُني سيد قطب بالناحية التصويرية لمعاني القرآن الكريم، بدأها أولاً بكتابه التصوير الفني في القرآن الكريم، فهو يكثر الوقفات عند مشاهد القرآن، يجسد النصّ المسطور واقعاً منظوراً، ذلك يحدث في النفس أثراً أكبر؛ حين يتحول القرآن إلى نصوص مفعمة بالحياة تلامس الواقع أية ملامسة، كما أنه استخدم نظرية التصوير في كتابه مشاهد القيامة في القرآن من خلال نقل المعاني المجردة وجعلها شاخصة نابضة بالحياة، يدمج ما بين حواسّ الإنسان ومشاعره، وما بين الصورة الكونية المهولة حين تقوم الساعة، ليقف الإنسان أمام هذه الصورة محاسباً لنفسه مستحضراً هذه المشاهد، "ومن أبرز الظواهر الأدبية التي اهتم بها سيد قطب بل يكاد يكون هو أول من تكلم بها ظاهرة التصوير، وقد عرضها عرضاً موجزاً في كتابه التصوير الفني في القرآن وفي مشاهد القيامة في القرآن، ثمّ نشر هذه القاعدة نثراً في الظلال"⁽⁵⁶⁾، يقول سيد في كتابه: "عمد القرآن الكريم إلى الأسلوب التصويري في التعبير عن الأغراض الدينية والتأثير في نفوس المؤمنين من أجل عقيدة موحدة على اعتبار أنّ منبعها الخالد هو

(53) الطيار، مساعد، دار المعرفة، الطبعة: الأولى، مناهج المفسرين، ص: (267).

(54) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة: السابعة عشر 1425هـ، 2004م، (ص: 36).

(55) الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص89، بتصرف من كتاب النقد الأدبي، للمؤلف سيد قطب، ص44-46.

(56) جعفر، عبد الغفور، التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، دار السلام، الطبعة: الثانية، 1433هـ، 2012م، (ص: 774)،

للمزيد ينظر: التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد: (775).

الضمير والوجدان، فأيسر السبل إلى الضمير هو البداهة، وإلى الوجدان هو الحس، لهذا نجد أنَّ القرآن عمد إلى البداهة عن طريق توظيف مشاهد مشخصة ومحسوسة في تؤثر في النفوس وتوقظ الإحساس⁽⁵⁷⁾.

نورد بعض الأمثلة التي توضح حضور اللون الأدبي في تفسيره:

ففي تفسيره لقصة آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36] يقول سيد: "ويا للتعبير المصور: «فَأَزَلَّهُمَا» إِنَّهُ لَفُظٌ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي"⁽⁵⁸⁾ يحاول سيد قطب أن يري القارئ جمال التعبير بقوله: فَأَزَلَّهُمَا، تلك الكلمة التي يجتمع فيها إرادة إبليس وقوع الزلل من آدم، والمحاولات الحثيثة التي تنم عن إرادة الشر.

وعندما تأتي قصة بناء الكعبة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: 127] يقول سيد: "ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود.. يرسمه مشهوداً كما لو كانت العين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن"⁽⁵⁹⁾ لكنّه يوقف القارئ ليتأمل السياق القرآني وكيف أنه انتقل من سرد قصة بناء الكعبة لأمرٍ مهمٍّ آخر "وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال. إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يتهلان" ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 127، 128]: فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجو الدعاء.. كلها حاضرة كأخا تقع اللحظة حية شاخصة متحركة، وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل⁽⁶⁰⁾.

تحدث سيد قطب عن آفاق التصوير الفني في القرآن الكريم، ووجد بعد استقراء النصوص وطول تعمُّق أنَّ التصوير يشغل مساحةً واسعةً في التعبير القرآني، وقد جاء هذا الأسلوب بطرقٍ متعددة⁽⁶¹⁾:

(57) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، (ص:28).

(58) في ظلال القرآن (1/ 58).

(59) في ظلال القرآن (1/ 114).

(60) في ظلال القرآن (1/ 114).

(61) ينظر: هذه الفقرة وما بعدها بتصرف، التصوير الفني في القرآن، (ص20).

أولاً: تصوير المعاني الذهني: وهو نقل المعاني من الصورة المجردة إلى الحاضر الحي، يراه القارئ لهذه الآيات أمام ناظره

كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:

171] فهؤلاء يدعون آلهة لا تسمع ولا تفقه، صوتٌ بغير معنى، ونداءٌ من لا يفهم، فهذه غفلةٌ وعبثٌ أهل الكفر.

ثانياً: تصوير الحالات النفسية: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ

هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ﴾ [الأنعام: 71] فهذه صورة

الإنسان الذي حادَّ عن سبيل الحقِّ يَحْتَارُ في نفسه تتنازعهُ دعوى أهل الحقِّ وأهل الضلال، فهذه صورة الحيرة في نفسه يصورها

القرآن في هذه الآيات.

ثالثاً: تصوير الحوادث الواقعة: إذ يتحدث القرآن عن المشهد الحقيقي بتصوير الحركات والانفعالات داخله كأنها واقعٌ

مشاهدٌ بكلِّ تفاصيله ومشاعره، ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10، 11] فهاهم أعداء المؤمنين

يأتونهم من كل مكان، فضاعت النفوس وزاغت الأبصار، فكلُّ هذا كان هزَّةً عنيفةً للفتنة المؤمنة أمام الفتنة الكافرة، هذه المشاعر

وهذا الموقف الحقيقي مسجَّلٌ كأنه واقعٌ نشهده.

رابعاً: الأمثال المصورة والحقيقية⁽⁶²⁾: وهو كثيرٌ في القرآن، إذ يُحدِّثنا عن قصص يضرب للمؤمنين بها الأمثال، فيروي لنا

حواراً أو موقفاً أو جدالاً أو دعوةً، كما في قصة صاحب الجنتين، أو قصة أصحاب الجنة الذين استثنوا المساكين من ثمار

جنتهم، يريد بها أن يوقظ الأفهام وينبِّه الأذهان إلى موقف المؤمن في هذا الموقف، وفي الأمثال دائماً العبرة والعظة، وكذلك

القصص الحقيقية، فقد عرض القرآن لمواقف كثيرة، مواقف الأنبياء مع أقوامهم، والثلة المؤمنة من قومهم كأصحاب الكهف،

والرجل المؤمن في قريته والمرأة المؤمنة في قصر فرعون؛ وغيرها من القصص التي تعدُّ عبرةً لأولي الألباب.

خامساً: مشاهد الطبيعة المصورة: حيثُ تصور الجمادات في مشهدٍ بديعٍ، انظر قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ

وَجَبَّاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَرَزْزٍ وَنَخِيلٍ صنَوَانٍ وَغَيْرِ صنَوَانٍ يُسَمَّى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4] فهذا المشهد المعتاد يُصوِّرُ في القرآن لُيْنَةَ العقول إلى عظمة الخالق، فهذه الأراضي المتجاورة تختلف

(62) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص: (67) وما بعدها.

في نباتاتها، وكلُّ نباتٍ يختلف في شكله وثمره وطعمه، مع أنَّه يُسقى بماءٍ واحد، وفي هذا آيةٌ عظيمةٌ لمن أراد أن يتفكر في عظيم خلق الله.

تصوير مشاهد القيامة: هنا نشهد الأهوال في ثنايا الكلمات، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 1، 2] كيف بالأم تدهل عن طفلها الرضيع، وكيف تسقط الحامل جنينها، وكيف حال الناس في ذهولٍ وسكرٍ من غير أن يشربوا مسكراً، أمرٌ جلالٌ، وهولٌ عظيم يوقع الناس فيما صورته الآية، كلُّ ذلك خوف العذاب الشديد.

التصوير في مشاهد النعيم والعذاب: وهذا التصوير فيه لوان، لونٌ من تشويق أهل الطاعة بما ينتظرهم من مقامٍ أمينٍ في جنَّة النعيم، ولونٌ من تخويف أهل المعصية بما ينتظرهم من عذابٍ حميم، يقول سبحانه في وصف عذاب أهل الكفر: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْمِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 43 - 49] طعامهم وشراهم النار، لا فيها راحةٌ ولا يشعرون بشيء، بل حم تغلي في أمعائهم غلي المرجل، وعذابٌ ينصبُّ عليهم ومن حولهم، ذلك بما عصوا ربهم في الدنيا، وأمَّا أهل الجنة فيقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ﴾ [الدخان: 51 - 55] هناك لا تعب ولا كدر، جنَّاتٌ وأحار، ولباس من أقمشة ناعمة ورائحة طيبة، يُدعون لأصنافٍ من النعيم لم يعرفوها في الدنيا، ذلك جزاء المؤمنين.

المطلب الثالث: المنهج التفسيري لسيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن"

يحاول سيد قطب في تفسيره للقرآن أن يطرق باباً جديداً غير مطروق، يحاول من خلاله تيسير القرآن للمسلم المعاصر الذي يعيش واقعاً جاهلياً كما يُعبر عنه سيد في كتاباته، فيعمد إلى أسلوبٍ مغايرٍ لكثيرٍ من المفسرين، فيتجنَّب التطويل في المسائل الفقهية، ويُعرض عن غيرها مما ورد في الإسرائيليات أو المبهمات والمشكلات، هدفه من ذلك أن يبقى القارئ في جو النصِّ القرآني، بعيداً عن أساطير الإسرائيليات أو مطولات المناقشات والخلافات بين المفسرين، وقد تحدَّث عن هذا بقوله: "وقد

جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفا من خبرها وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه. وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور⁽⁶³⁾.

ويستشهد ببعض كتب التفسير التي اعتمدها كمراجع في تأليفه، كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وجامع البيان لابن جرير الطبري، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والكشاف للزمخشري وغيرها من المراجع، لكنه لا يكثر منها، بل يأخذ منها ما يصلح للاستشهاد أو التوضيح، ومن التفاسير المعاصرة تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسير جزء عم للشيخ محمد عبده، وأما في السيرة النبوية فكان يعتمد من الأمهات سيرة ابن هشام، وكتاب إمتاع الأسماع للمقريزي وزاد المعاد لابن القيم، وجوامع السيرة لابن حزم، ولعل منهج اعتماد المؤلف على المصادر له علاقة بحاله عند كتابة الظلال، فقد كتب تفسيره في غياهب السجن الذي وقر بعض المصادر، وهذه الحال لا تخلو من التأثير على المنهج والله أعلم.

يستخدم سيد قطب في أسلوبه طريقة واضحة، يتطرق عند كل سورة بمقدمة عن مقصدها العام، ويذكر أبرز سماتها، ثم يقسمها إلى مقاطع يُبين ترابطها، ولا يغفل الحديث عن أسباب النزول إن وجدت، وكما أسلفنا فهو لا يتطرق إلى الحديث عن الإسرائيليات⁽⁶⁴⁾، ولا إلى المطولات من الأحكام، ولم يهتم ببيان المشكلات والمبهمات، مستشهداً بالروايات الصحيحة وأسباب النزول الثابتة مرجحاً بينها أحياناً، كل هذا بأسلوب أدبي خاص، يحاول من خلاله بيان المعنى القرآني بعبارة حسنة السبك بليغة المعنى.

أمثلة عن أسلوب سيد قطب في تفسيره: المقصد العام، سمات السورة، تقسيم السورة إلى مقاطع، بيان ارتباط المقاطع.

أولاً: المقصد العام، سورة الأنعام نموذجاً:

يُقدم المؤلف في بداية تفسير سورة الأنعام إلى تعريف بالسورة وهدفها، يقول سيد قطب: " تطوّف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق، وفي هذه الأغوار والأعماق... تهدف إلى تعريف الناس برهم الحق لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لرهم الحق. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد، ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد.. من أولها إلى آخرها.. فالله هو الخالق. والله هو الرازق. والله هو

(63) في ظلال القرآن (6/ 3634).

(64) الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص: (163).

المالك. والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان⁽⁶⁵⁾ يرى سيد قطب أنَّ هذه السورة تعالج قضية الألوهية والعبودية لله عزَّ وجلَّ، هو كذلك القرآن المكي في جميع سوره، يظهر ذلك في قضايا التشريع في السورة، يظهر في تعريف العباد بخالقهم ومطعمهم وكافلهم، يعرفهم بمن بيده الخلق والإعادة، ومن بيده الليل والنهار، والماء والثمار والحُبُّ المتراكب، وغير ذلك من صفات الخالق المستحق للعبادة والطاعة⁽⁶⁶⁾.

ثانياً: سمات السورة: يرى سيد أنَّ العقيدة هي الموضوع الرئيس للسورة، وذلك من خلال مدخل التشريع والحاكمة التي اقتضت كلَّ هذه الآيات البينات على ألوهية الله سبحانه، من خلال التأكيد على حاكمية هذا الدين في الصغير والكبير من شؤون الدنيا.

من أهمِّ سماتها أنَّها مكيةٌ نزلت جملةً واحدة، يُرجَّح المؤلف أنَّها نزلت بعد السنوات الأولى من الرسالة الخامسة أو السادسة، وفيها تتسع المواضع وتتعدد، وهو الذي يوحى بأنَّ دعوة المشركين وجدالهم للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح يقتضي التوسع في عرض القضايا العقدية هكذا، مع تثبيت النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام هذا الإعراض والتكذيب من المشركين.

ثالثاً: تقسيم السورة إلى مقاطع⁽⁶⁷⁾:

تبدأ السورة بمواجهة المشركين بدلائل التوحيد التي تملأ الآفاق وهم في غفلةٍ عنها مع أنَّ الكون كله يشهد بهذا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]

ثمَّ في مقطعٍ آخر تعرضُ السورة موقف المكذِّبين بهذه الدلائل من أمِّ سبق هلاكها، ظهر في ذلك غرابة الإنكار مع قدرة الجبار عليهم، وفي ذلك آيةٌ لمن وقف موقفهم: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 4 - 6].

(65) في ظلال القرآن (2/ 1017).

(66) للمزيد: الطيار، مساعد، مناهج المفسرين، ص: (267)

(67) يُنظر: في ظلال القرآن (2/ 1022) وما بعدها.

وبعد مواجهة الكفار وبيان عنادهم وإنكارهم وما حلَّ بإسلافهم، تنتقل السورة إلى التعريف الواضح بحقيقة الألوهية، تبيين عظمة الخالق وسعة ملكه، وأنه هو المدبر والرازق، الخلق خلقه، والعبيد عبيده، بيده النفع والضرر، وبيده الجنة والنار، وهو القاهر فوق عباده: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 12، 13].

ثم يلفت السيف إلى تسليية رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتسرية عنه لما واجهه من تكذيب وإساءة، ويذكره أن هذه سنة المرسلين أودوا حتى أتاهم نصر الله تلك سنة الله في خلقه، يقول سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

رابعاً: "في ظلال القرآن" نقلة جديدة في عالم التفسير:

يتفق الدكتور صلاح الخالدي -وهو من هو في دراسته لسيد قطب ومؤلفاته- مع الدكتور عدنان زرزور على وصف الظلال بأنه نقلة جديدة في التفسير؛ ذلك أنه توفرت فيه أمور منهجية يحتاجها المسلمون المعاصرون حاجة ماسة.

ينطلق تفسير في ظلال القرآن في بيان الغرض الأساسي الذي نزل به القرآن؛ وهو إنشاء أمة مسلمة لها خصائصها، وتربية الجيل تربية إيمانية، ورسم معالم الطريق لهذه الأمة وفقاً لمنهج كتاب الله، ثم تصوير البعد الواقعي لهذا القرآن من خلال فهم الصحابة له وحياتهم معه، فغدا هذا القرآن كلاماً منزلاً على واقعٍ معاشٍ في حياة الصحابة رضي الله عنهم، وما قام به المؤلف من تجاوز للخلافات المذهبية والفكرية، وعدم الركون لتحيزات مسبقة، ثم صياغة هذه الرؤية القرآنية بأسلوب رصين ومعرفة واقعية وفهم قرآني⁽⁶⁸⁾.

(68) للمزيد: صلاح الخالدي تعريف الدارسين بمنهج المفسرين، ص: (616)، عدنان زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلموه، دار القلم، الطبعة: الثانية، 1419هـ، 1998م. ص: (268).



الفصل الثاني: العنصرية مفهومها وأسبابها وأنواعها

وفيه مبحثان

المبحث الأول: مفهوم العنصرية ونبذة تاريخية عنها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: العنصرية لغةً واصطلاحاً

المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن العنصرية

أولاً: العنصرية عند العرب قبل الإسلام

ثانياً: العنصرية عند اليهود

المبحث الثاني: أسباب العنصرية وأنواعها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب العنصرية

المطلب الثاني: أنواع العنصرية

الفصل الثاني: العنصرية مفهومها وأسبابها وأنواعها

المبحث الأول: مفهوم العنصرية ونبذة تاريخية عنها.

نقف الآن على صلب موضوعنا، فهدف هذه الرسالة بيان معالجة العنصرية في القرآن كما بينها المؤلف سيد قطب، ومن الأهمية بمكان أن نشير أن زماناً لا يخلو من أمراض مجتمعية عدّة، لكن هذه الظاهرة التي نتحدث عنها مغلّة في القدم، فقد شهدتها وعانت منها المجتمعات قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً، وجلّ المحاولات العلاجية لهذه الظاهرة لم تكن سوى تسكين لها في ظروف معينة، ومع أن كثيراً من الدول المعاصرة تُجرّم العنصرية في قوانينها، إلا أنك تجدها حاضرة في الممارسات السلوكية لأفراد تلك الدولة، أو لعلك تجد في بقية قوانينها ما يشرع لتحيزات أو قرارات تقوم على أساس عنصري.

نقف في هذا المبحث على تعريف العنصرية وجذورها في بعض الأمم السابقة، مع بيان أسبابها وأنواعها.

المطلب الأول: العنصرية لغةً واصطلاحاً

تأتي العنصرية في اللغة على معانٍ، فهي من العُنْصُر أي الأصل، يقال: لقيم العنصر؛ أي: الأصل؛ أصل الحسب، وهي بضم العين، وقيل: العُنْصُر: الداهية، قاله أبو عمرو. وقال بعضهم: العنصر: الهمة والحاجة⁽⁶⁹⁾، قال الجرجاني: العنصر: هو الأصل الذي تتألف منه الأجسام المختلفة الطباع⁽⁷⁰⁾، ومنها ما ورد في الأثر: "يَرْجِعُ كُلُّ مَاءٍ إِلَى عُنْصُرِهِ"⁽⁷¹⁾، فيعود معناها المتعلق بموضوعنا إلى الأصل أو العرق غالباً، أو الجزء المكون للنوع على التفسير الطبيعي للأشياء.

المعنى الاصطلاحي: للوقوف على معنى العنصرية اصطلاحاً لا بُدّ من استعراض عدّة تعاريف لها؛ حتى نرى اختلاف النظر لهذه الظاهرة من قبل الباحثين الذين تطرقوا لها من عدّة نواحٍ، فأورد عدّة تعاريف ثمّ أقف على ملامح مشتركة بينها.

(69) يُنظر: الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الزاق الحسيني، (ت: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، دون طبعة، باب (ع ن ص ر) (13/ 152)، وابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (ت: 711هـ)، لسان العرب، دون تحقيق، دار صادر، بيروت- لبنان، ط 1414/3هـ، فصل العين المهملة، (4/ 611).

(70) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، (ت: 816هـ)، كتاب التعريفات، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1983/1م، (ص: 157).

(71) الطبراني، سليمان بن أحمد اللخمي الشامي، المعجم الكبير، مكتبة ابن تيمية، تحقيق: حمدي السلفي، الطبعة: الثانية، 1415هـ، 1994م، باب العين، رقم الحديث: (8857) (9/ 173).

جاء في المعاجم المعاصرة كالمعجم الوسيط أنَّ العنصرية هي "تعصب المرء أو الجماعة للجنس"⁽⁷²⁾، وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: "التفرقة العنصرية: بأنها: نزعة سياسية غير مشروعة، تفرق بين الأجناس على أساس اللون أو الجنس"⁽⁷³⁾.

يُعرف الدكتور محمد يحيى العنصرية بأنها "تقوم على ادعاء أنَّ شعباً من الشعوب أو قوماً من الأقوام أو جنساً من الأجناس البشرية.... تتميز في صفاتها الجسمية والعقلية عمّا عداها، وأنّها لذلك صاحبة الفضل في بناء الحضارة الإنسانية والمدنية، ومؤهلة من أجل هذا السبب للقيادة والإمارة على الآخرين"⁽⁷⁴⁾

إذاً يرى الدكتور محمد أنَّ العنصرية هي ادعاء التفوق الجسدي أو العقلي لفئة ما، وأنَّ هذا التمييز يمنح هذه الفئة التفوق والأحقية في الريادة على الآخرين، ويغيب عن هذا التعريف الاختلاف النسبي الذي يدعي البعض من خلاله تفوق عرقهم لا لوهم على الآخرين، ويغفل عن الجانب المادي من مالٍ ومنصبٍ وغيرها.

ويعرفها الأستاذ أحمد الزغاية فيقول: "هي عقيدة تستند إلى ادعاءات مناقضة للدين والحق والعلم الصحيح، حول تفوق أو نقص هذه الأجناس أو تلك، محاولةً بذلك تبرير السياسة العدوانية ضد الكائن البشري التي تقوم على الاغتصاب والإرهاب والاستعباد"⁽⁷⁵⁾.

ويشير هذا التعريف إلى أنَّ العنصرية اعتقاد تنبأه فئة ما، وهذه إشارة عميقة، إذ إنَّ توارث العنصريين هذه الظاهرة يجعلها تنزل منزلة العقائد المسلمة لديهم، وتقيدها بمخالفة الدين والحق تقييداً لازم، ويؤدي غالباً هذا التمييز العنصري إلى سياسات عدائية تجاه الطرف الذي تمارس عليه هذه السياسة.

وعرفها الباحث محمد عابنة بأنها: "فكرة أو اعتقاد أو سلوك يقوم على الفصل بين الناس، أو شعور بالتفوق على الآخرين تدعمه السلطة والقوة، وتبرره صفات خاصة موجودة عند البعض ومحروم منها الآخرون كاللون والجنس والثروة والجاه"⁽⁷⁶⁾.

(72) الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة، الطبعة: بدون، (2/ 631).

(73) عمر، أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، دار عالم الكتب، الطبعة: الأولى، (1/ 16).

(74) البهي، محمد، التفرقة العنصرية والإسلام، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، 1399هـ، 1979م، (ص:5).

(75) الزغبني، أحمد بن عبد الله، العنصرية اليهودية وآثارها على المجتمع الإسلامي والموقف منها، مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، 1418هـ، 1998م، ج1، ص:60.

(76) عابنة، محمد مصلح ثلجي، العنصرية وعلاجها من منظور تربوي إسلامي، رسالة ماجستير في قسم الدراسات الإسلامية جامعة اليرموك، (ص:11).

وقد جاء في المادة الأولى من الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري أنَّ المقصود بالتمييز العنصري "أي تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم على أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الاثنى ويستهدف أو يستتبع تعطيل أو عرقلة الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها، على قدم المساواة، في الميدان السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو في أي ميدان آخر من ميادين الحياة العامة"⁽⁷⁷⁾، لكن في البند الثاني منها مباشرة جاء تقييد لهذا التعريف "لا تسري هذه الاتفاقية على أي تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل بين المواطنين وغير المواطنين من جانب أية دولة طرف فيها"⁽⁷⁸⁾.

ولا يخلو هذا الاستثناء من فكرة عنصرية، فالتمييز بين الناس على أساس قومي، أو على كونه مواطناً أو غير مواطن لهذه الدولة هو تمييز عنصري.

بالنظر لهذه التعريفات نجد أنَّ العنصرية تقوم على اعتبار الاختلاف الجسدي أو النسبي أو القومي أو ما تمتلكه من مقومات ماديّة سبباً في تفوق فئة على أخرى، وهذا التفوق يعطي ميزات وأفضلية لها على غيرها. وهذا الذي قامت عليه الدولة الصهيونية في عالمنا المعاصر من اعتبار أنهم ينتسبون لعرق مميز عن غيرهم لا يشابههم أحد، ونصبوا لذلك العداء بدعوى (معادة السامية)، كذلك أسلافهم من بني إسرائيل الذين ادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18].

كذلك تجد كثيراً من الجماعات العنصرية التي تقوم على تمييز في اللون كظاهرة حاضرة في أكبر البلاد في عالمنا وهي أمريكا، إذ يتعرض سود البشرة إلى اضطهاد وظلم لم يستطيعوا معالجته رغم ادّعاء تحضرهم وإنسانيتهم⁽⁷⁹⁾.

(77) [https://www.ohchr.org/ar/instruments-mechanisms/instruments/international-](https://www.ohchr.org/ar/instruments-mechanisms/instruments/international-convention-elimination-all-forms-racial)

[convention-elimination-all-forms-racial](https://www.ohchr.org/ar/instruments-mechanisms/instruments/international-convention-elimination-all-forms-racial). للمزيد ينظر مقررات مؤتمر ديربان - جنيف 2009، ومخرجات

المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة المنعقد في باريس، 1978، ومخرجات الجمعية العامة للأمم المتحدة في الدورة السادسة والستون، 2011. تعريف "الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري، وبموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 2106 (د-20) 21 كانون الأول 1965.

(78) المصدر السابق.

(79) للمزيد <https://www.mc-doualiya.com/%D8%A3>.

أمّا أزمة المواطنة⁽⁸⁰⁾ فهي ظاهرة تجدها اليوم حتى في البلاد الإسلامية، باعتبار تفوق مواطنٍ حاصلٍ على جنسية دولةٍ ما على مواطنٍ من دولةٍ أخرى، أو بين مقيم ومسافر، ومن أوضح الأزمات أزمة البدون في الكويت، وهم فئة البدون الذين يقيمون بين العراق والكويت، ولم تمنحهم دولة الكويت حقّ المواطنة في هذا البلد رغم إقامتهم بها منذ عشرات السنين. ولا تنحصر الأمثلة على وجود جماعات عنصرية تستند في ادّعاء تفوقها إلى ما ذكرناه من صفاتٍ جسدية أو نسبية أو مادية أو غيرها.

المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن العنصرية

تعتمد ظاهرة العنصرية على موضوع ادّعاء التميز والتفاضل، وهذه ظاهرة قديمةٌ كان إبليس أول من مارسها، إذ ادّعى لنفسه ونوعه فضلاً على غيره ممن خلق الله، وبنى على اختلاف نوعه فضلاً يستحقه معترضاً على أمر الخالق عزّ وجل فحكى عنه قوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، ذلك أنّ إبليس ادّعى أنّ جنس النار أشرف عنصراً من جنس الطين إطلاقاً، وأضاف إلى هذه التفضيل عصباناً لأمر خالقه ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: 61]، وهذا الذي فعله إبليس لا أصل له، إذ تفضيله جنس النار على جنس التراب لا دليل عليه، إذ لم يختص الخالق عزّ وجل جنس النار بشيء قبل وجود جنس البشر حتى يدّعي ما ادّعاه، وأمّا الحاصل بعد الخلق أنّ جنس البشر هو أفضل من جنس الجنّ والشياطين، ذلك أنّ آدم اصطفاً الله عزّ وجل، وفي كون جنس البشر أفضل من جنس الملائكة كلامٌ ليس هذا محله.

إذاً بدأ إبليس ظاهرة ادّعاء فضله على غيره باعتماد نوعه وهو النار، وخرج من بين البشر أصنافاً من العنصريين يدّعون أفضليتهم بأمورٍ ليست في ذاتها مدعاةً لتمييز جنسٍ أو عرقٍ على آخر، فهنا نبين أمثلةً على وجود العنصرية في الأمم السابقة، ثمّ نحاول تصنيف أنواع العنصرية.

أولاً: العنصرية عند العرب قبل الإسلام

⁽⁸⁰⁾ تعني المواطنة تمتع فردٍ بعضوية بلدٍ ما، ويستحق بهذا الانتماء الامتيازات والحقوق وتقع عليه الواجبات المترتبة عليه من قبل الدولة الأم، للمزيد ينظر: منشور المواطنة، زياد علاونة، إصدار وزارة الشؤون السياسية والبرلمانية الأردنية، ص: 13.

لم تكن جاهلية العرب قبل الإسلام تقتصر على العلم والحضارة فحسب، بل جاهلية أخلاقية يعلو فيها أنواع الظلم وصور العنصرية المختلفة، عنصرية في الاعتداد بالأنساب، وعنصرية في فضل الذكر وشؤم الأنثى، وعنصرية في استرقاق الناس وإهانتهم، فهي من خصال الجاهلية، فالتفاخر بالأنساب مذموم جاء الإسلام بالنهي عنه، ذلك أنه يدعو للتفاخر والخيلاء وتغدوا الحياة الاجتماعية قائمة على طبقية من القبائل ذات الأنساب العالية وغيرها من الأنساب دون ذلك، وليس فهذا فحسب، بل كانت العرب ترى أن أصحاب النسب الوضيع لا تزكيه الأعمال الحميدة مهما عظمت، وهذه غطرسة لا مثيل لها، وقد نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بعض ما بقي في الناس من ظواهر قبل الإسلام، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَزْعِ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَرْكُوهَنَّ: الْفَحْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ"⁽⁸¹⁾ فهذا النهي عن اتخاذ الناس مقياساً غير شرعي في التفاضل، فهذه مقاييس جاهلية تميز الناس وترفعهم وتخفضهم بغير وجه حق، فالتفاخر والكبر من أمراض النفوس التي هدَّبا الإسلام، والطعن والسخرية مما نهي الإسلام عنه، بل لعل الأقل والأضعف يكون خيراً عند الله كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]

أمّا عنصرية عرب الجاهلية تجاه المرأة فله صور شتى، ذلك أن المرأة عارٌ عليهم إن ولدت لهم، ومتاعٌ لهم حين تكون عندهم، ولا حقوق لها من إرث أو غيره، بل تُورث بعد موت زوجها كما يورث المتاع والمال، كما عُرف الوأد وهو دفن الإناث في التراب أحياء خشية العار أو نفوراً من لوغها أو مرضٍ فيها، وقد ذكرهم القرآن ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8، 9] "وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها، وتعزل بعد الطلاق ووفاة الزوج من أن تتكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة"⁽⁸²⁾.

أمّا حال الرجال بين بعضهم وحال القبائل والبطون فهو أشد فتكاً وظلماً، "كانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها وامتنيازاً، فتترفع على الناس ولا تشاركهم.... وكان النفوذ والمناصب العليا متوارثاً، وكانت طبقات

(81) مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد

الباقى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم الحديث: (934).

(82) الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين، مكتبة الإيمان - المنصورة، الطبعة: الثالثة عشر، (ص: 60).

مسخرة، وطبقات سوقة وعوام، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي⁽⁸³⁾، ولم يكن للأحقية معياراً يستند إليه سوى النسب أو الولاء، وهذا من أمقت صور التعصب، وله صورٌ في الواقع المعاصر كالعائلات الملكية التي يشغل أبنائها مناصب رفيعةً بالدول لا لشيء سوى انتسابهم لهذه العائلة، فلا عجب أن ترى بعد ذلك غربةً في حال البلاد وما وصلت إليه.

وقد كان بين رجال العرب عصبيةً جاهلية، عصبية للأُسرة والقبيلة، عصبية للرأي وعصبية للفعل، عصبيةٌ تؤدي للقطيعة أو الحرب، تؤدي للحقد والتباغض بين القبائل، توقع التفكك والتفرق بين العرب، عصبية تجعل العربي ينصر أبناء قبيلته على أي حالٍ كانوا من حقٍ أو باطل، وهي التي هذبها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»⁽⁸⁴⁾، كما وجَّه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إلى ترك التعصب للأبَاء "لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِأَبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعْلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ الْحِرَاءُ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ⁽⁸⁵⁾ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَحَرَهَا بِالْأَبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ"⁽⁸⁶⁾ وهذا نحي واضحٌ عن اتخاذ مقاييس للتفاضل لا تمتُّ للشرع بصلة، وليست في ذاتها مدعاة للتفاضل، إنما هي فروقٌ بشرية جعلها الله عزَّ وجلَّ بين البشر في كل زمانٍ ومكانٍ لحكمةٍ أرادها.

إنَّ العنصرية عند العرب قبل الإسلام كانت حاضرةً بوضوحٍ في حياتهم الاجتماعية والسياسية، ولم يكن يخفيها ما عندهم من شهامة وشجاعة وكرم، إذ إنَّ النفوس المتعصبة والجاهلة لا توشك أن تخرج عن الحدِّ بدون تربيةٍ تهذبها، أو رادعٍ تخضع له، وهذا الذي جاء به الإسلام، فقد صرَّح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبة الوداع بأنَّ ما كان من أمر الجاهلية الذي يخالف الإسلام

(83) الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين، (ص: 61).

(84) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح - صحيح البخاري ت(256هـ)، تحقيق محمد زهير الناصر، ترقيم فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى 1422هـ، كتاب الإكراه، رقم الحديث: (6952)، (9/ 22).

(85) يُدْهِدُهُ: أي يدرجه، والعبية: الكبير، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التَّفَاخُرِ بالأنساب والتَّبَاهِي بها، غريب الحديث للخطابي (1/ 290)، الزمخشري، الفائق في غريب الحديث (2/ 384).

(86) الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير - سنن الترمذي، ت(279هـ) تحقيق بشار معروف، دار الغرب الإسلامي 1998، أبواب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، رقم الحديث: (3955)، قال الترمذي: وهذا حديثٌ حسن، (6/ 228).

فهو باطل لا وزن له: " أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَرَبُّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ" (87) فهذب النفوس وكمل الأخلاق وضبط المجتمع بتشريع رباني جعل من حملته نجوماً أضاءت بهم الدنيا بعد ذلك.

ثانياً: العنصرية عند اليهود

يأخذ الحديث عن اليهود وبني إسرائيل في القرآن الكريم مساحةً واسعة في القرآن الكريم؛ ذلك أن في قصصهم من العبر والآيات شيء عظيم، فقد تتابعت عليهم الأنبياء، وجاءتهم الرسل تدعوهم إلى عبادة الله عز وجل وترك ما سواه، وفضلهم الله عز وجل حال إيمانهم على من سواهم من أهل زمانهم، وآتاهم الآيات البينات، وهم في كل مرة ينكصون أو يبدلون أو يحاربون الحق وأهلهم "وكانت لهم دعاوى عريضة عجيبة. كانوا دائماً يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون. وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك" (88).

فاليهود يدعون لأنفسهم نسباً مقدساً وصله ليست لغيرهم من البشر مع الله عز وجل، ذكر ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، فقد شاركوا النصارى بادعاء أن لهم حظوة وتقديم عند الله، ولو نظرنا إلى أحفادهم ليوم لوجدنا دولتهم تقوم على هذا الأساس من ادعاء التفوق العنصري، فقد قامت الحركة الصهيونية على تجميع اليهود على أرض فلسطين على أساس قومي عنصري، إذ اعتبروا أن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار، وبقية الشعوب هي دونهم أو مسخرة لخدمتهم، متمسكين بدعواهم القديمة أنهم أبناء الله وأحباؤه.

كما ظهر في العالم مصطلح معاداة السامية، "وهو مصطلح يُعطى لمعاداة اليهودية كمجموعة عرقية ودينية وإثنية" (89) بينما في الحقيقة هو تهمة توجه لأي جهة تعادي أو تعارض الصهيونية ومشروعها، إذا ينسبون أنفسهم إلى سام بن نوح عليه السلام،

(87) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم الحديث: (1218)، (2/ 887).

(88) في ظلال القرآن (1/ 75).

(89) موسوعة ويكيديا <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D>

فخصّوا لأنفسهم نسباً سامياً ليس كغيره من الأنساب والأجناس⁽⁹⁰⁾، وهذا التضخيم لمسألة المعادة لهذا الجنس المختار من البشر بادعائهم يضعهم في جهة ويضع البشرية جمعاء في ضفة أخرى.

فاليهود ادّعوا بدايةً أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنّ لهم الصلة والمكانة عند الله عزّ وجلّ، لكنّ القرآن نفى صحة هذه الدعوى، ذلك أنّّه ليس بينه وبين الله قرينة ومنزلة، وليس لكونهم يهوداً أو نصارى يكون لهم اختصاص أو تمييز، إنما هي عقيدة وإيمان صحيح يُكرم به أهل الإيمان، وهذا قانون "قانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم - فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر - وليس أحد تخرق له القاعدة، وتحالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون.. إن صاحب السوء مجزى بالسوء وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة"⁽⁹¹⁾، كما ادّعوا أنّ هذه المكانة لهم لن تدخلهم في عقاب الله عزّ وجلّ للمذنبين فقالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، ولكنّ الله عزّ وجلّ قطع حجتهم، وردّ تكبرهم واستعلاءهم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: 18].

وادّعى اليهود أنهم شعب الله المختار بظنهم، وأنّ الله فضلهم على جميع العالمين لجنسهم⁽⁹²⁾، وقد غفلوا عن سنّة الاستخلاف وظنوا أنّهم مفضلون لكونهم يهوداً، وأنّ الهدى مرتبطٌ بهم لا بغيرهم، فبنوا على هذه الادّعاءات ظملاً كبيراً، وليس ذلك من الحق في شيء، سوى أوهام لا تغني من الحقّ شيئاً، "تلك الأمانى التي لا تستقيم مع عدل الله، ولا تتفق مع سنته، ولا تتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء.. أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم.. علام يعتمدون في هذه الأمانة؟"⁽⁹³⁾، إنما هي العبادة والطاعة، هذا هو العهد وهذا هو الميثاق، ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(90) يعتبر اليهود أنّ بقية الأعراق وهم الحاميون: نسبة إلى حام بن نوح ويقصد بهم سكان إفريقيا، واليافيثيون نسبة إلى يافث بن نوح وهم أصل شعوب الهند وأوروبا، يعتبرون هذه الأعراق دون العرق السامي، للمزيد:

<https://almoslim.net/node/85319>

(91) في ظلال القرآن (2/ 762)

(92) عاشور، السيد محمد، التفرقة العنصرية، مكتبة المهتدين الإسلامية، 1407هـ، 1986م، ص: (103).

(93) في ظلال القرآن (1/ 85).

[البقرة: 80 - 82] ليس عهداً خاصاً بجنس ولا بقوم، لا باليهود ولا بالنصارى ولا بالمسلمين ما لم يحققوا شرطه ويوفوا بعهده "ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس. وأن الله متجاوز عما يقع منهم.. بما أنهم المسلمون.. فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل، والعمل وحده. ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد. هو إسلام الوجه لله" (94).

ثمَّ جاء اليهود المعاصرون وهم أبناء العنصرية اليهودية ومعبرون عنها، وأقاموا لأنفسهم دولةً قامت على أسس عنصرية بحتة، فقاموا على ما ادَّعاه أسلافهم من أنهم شعب الله المختار وأنهم أنقى سلالة بشرية على وجه الأرض، واستغلوا دعاوهم هذه وتزييفهم للتاريخ ليستعمروا أرض فلسطين باعتبارها أرضهم وأرض أجدادهم، فجمعوا بين الاستعلاء والعنصرية والاستعمار، فكانوا مثلاً صارخاً على الاستعمار الاستيطاني الوحشي، فالعنصرية اليهودية اليوم "عقيدة تستند إلى فلسفة مناقضة للدين والعلم، حول أفضلية العنصر اليهودي على من عداه من العناصر البشرية الأخرى" (95)، بل جاء من ورائهم دولٌ تصادُرُ على مطالبة أصحاب الحقِّ لحقوقهم، فكلما طالب المسلمون بأرضهم ومقدساتهم اتُّهموا بمعاداة السامية، هذه المظلومية التي يروج لها العالم اليوم لكل من يتعرض لانتهاكات اليهود بكلمة (96)، تقوم الصهيونية على أساس قومي عنصري، تستعمر أرض فلسطين وتدعو اليهود للتجمع فيها للعمل للصهيونية وإقامة دولة قومية لهم، وتسعى إلى استئصال العرب والمسلمين من أرضهم، دولةً قامت على عصبية قومية، وعصبية دينية استقطبت اليهود إلى الأرض المزعومة.

ويرتكب اليوم الاحتلال الصهيوني أبشع الجرائم العنصرية من خلال احتلال الأراضي الفلسطينية، وإزالة مئات القرى من الوجود مع تشريد مئات الآلاف من أهلها (97)، واعتدى الاحتلال الصهيوني على المقدسات الإسلامية، فهدم المساجد ودنسها، وعلى رأسها قبلة المسلمين الأولى المسجد الأقصى (98)، كما يمارس اليهود جريمة التمييز العنصري ضد الفلسطينيين من خلال

(94) في ظلال القرآن (2/ 762).

(95) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، ص 64.

(96) ينظر: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، ص: (80).

(97) للمزيد ينظر: موقع قناة الجزيرة، مقال: الانتهاكات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية، رابط:

<https://www.aljazeera.net/2004/10/03/>

(98) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، ص: (289)

إعطاء الإسرائيليين أولوية الحقوق في كل شيء، وبهيمن الاحتلال على حياة الفلسطينيين بشتى مجالاتها المعيشية والأمنية، وتعزز السياسة الإسرائيلية من سياسة التمييز ضد الفلسطينيين من خلال إصدار الكنسيت قانون عام 2018 معلنا إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي والقدس عاصمةً لها، متجاهلاً حقوق الفلسطينيين في أرضهم⁽⁹⁹⁾.

يمارس اليهود أبشع جرائم العنصرية من خلال محاربة المسلمين في دينهم ولغتهم وأرضهم، حيثُ يروج اليهود لدعاية أنَّ المقاومة التي يواجهونها في فلسطين هي إرهاب، وأنَّ المسلمين يشكلون عداءً لهم، في حين أنَّ اعتداء اليهود على مقدسات المسلمين وأرضهم لا يلقى استنكاراً عالمياً، كما تعتبر العبرية هي اللغة الرسمية للأراضي المحتلة، ويستولي الاحتلال على الأراضي الفلسطينية ويتمدد بشكل استعماري واضح، والعالم الغربي يؤيد الانتهاكات الصهيونية كما هي عادتهم "وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم"⁽¹⁰⁰⁾ كما يعبر سيد قطب عن هذا صريحاً، إذ لولا التأييد الغربي والأمريكي للاحتلال اليهودي لما قامت لهم قائمة، لكن التحيز الواضح للاستيطان اليهودي هو الذي ثبت وجودهم إلى الآن.

⁽⁹⁹⁾ حيث قررت الولايات المتحدة الأمريكية نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى مدينة القدس، وإعلان القدس عاصمة رسمية لإسرائيل، للمزيد: <https://www.bbc.com/arabic/42247032>.

⁽¹⁰⁰⁾ في ظلال القرآن (2/ 910).

المبحث الثاني: أسباب العنصرية وأنواعها

المطلب الأول: أسباب العنصرية

لا بُدَّ عند الحديث عن موضوع العنصرية أن نتطرق إلى الأسس التي يقوم عليها وينطلق منها، فلكل ظاهرة اجتماعية أسبابها ومحركاتها، فالسلوك الإنساني ناتج عن عالم من التصورات والأفكار التي يحملها مجتمع ما، تأخذ هذه التصورات حيناً واسعاً في سلوك الإنسان، فالسلوك هو الجزء الظاهر من الفعل، وما خفي هو البنى الفكرية والمفاهيم التي ينطلق منها السلوك. ونعلم أنَّ الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره، فقبل أن نحكم العنصرية كسلوكٍ ظاهر، لنراجع الدوافع والتصورات المنشئة لها، فالمفاهيم العنصرية هي التي تنشأ السلوك العنصري، نحاول في هذا المطلب العودة إلى أسباب العنصرية والأسس التي تقوم عليها.

أولاً: الكبر والحسد: الكبرُ خلقٌ مذموم، وخصلةٌ معيبةٌ في الناس، وهي أولُ ذنبٍ جاء به إبليس في قصة آدم، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 76]، وهو المانع عن قبول الحقِّ واتباع الأمر، وفيه احتقارٌ للخلق وتضييع لحقوقهم واستهزاءٌ بهم، وكما كان هذا حالُ إبليس فهي حالة صناديد قريش الذين استعصوا على الدعوة لكبرٍ في نفوسهم أن ينقادوا للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتكون له الرياسة والاستعلاء عليهم، غافلين عن حقيقة الإسلام وتسويته بين الداعي والمدعو وبين القائد والتابع فكلهم أسلموا أمرهم لله ربِّ العالمين⁽¹⁰¹⁾.

إنَّ الكبر والحسد من أمراض القلوب التي يظهر أثرها على سلوك الإنسان "إنه الهوى يتعاضم أهل الكبر أن يذعنوا للحق، وأن يستمعوا لصوت الفطرة، وأن يُسَلِّموا بالحجة. وهو الذي يملئ عليهم العناد والإعراض، واختلاق المعاذير، والادعاء بالباطل على الحقِّ وأهله. فهم لا يسلمون أبداً أنهم مخطئون وهم يجعلون من ذواتهم محورا للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة"⁽¹⁰²⁾، فيولِّد الكبرُ وتنشأ العنصرية.

(101) ينظر: في ظلال القرآن (5/ 2643).

(102) في ظلال القرآن (6/ 3258).

وقد تحدّث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الصفات وأشار إلى فحشها فقال: "الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ" (103) بطر الحق دفعه ورده، وغمط الناس هو استحقارهم واستصغارهم والخط من شأنهم (104)، وهذا العمل مذموم في الشرع منهى عنه، بل هو من الكبائر كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ" (105)، وقول إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾: "إنه الحسد ينضح من هذا الرد وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود" (106).

فالكبر والحسد مؤلّد للأفعال والتصرفات العنصرية، وهي لا تستند لأساسٍ علميٍّ أو شرعيٍّ، بل هو مرضٌ في النفس يورث عنصرية بغیضة، فترى الاستكبار والتطاول على الخلق بغير وجه حقٍّ، وهو مانعٌ من اتباع الحق والخضوع له، وهذه الصفة مأخوذة من إبليس وأتباعه كما وصفهم تعالى في قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]، جحودٌ كبرٍ في رفض الإيمان الساطع، واستعلاء على الحق وأهله، وهذه ليست من صفات النبيين أو أتباعهم، بل ضدها هو الصحيح أي: التواضع للخلق والرحمة بهم.

وقد نحى الإسلام عن أيِّ عملٍ عنصريٍّ مرده الكبر، فليس لنسبٍ فضلٌ على نسبٍ آخر، ولا للونٍ فضلٌ على لونٍ آخر، كما أنّ تفاضل الناس لا يقوم على ظنٍّ أصله مرضٌ أو هوى، فهي دعوى من غير أصل، واستنادٌ على غير دليل، فلا شيء فضلهم على غيرهم سوى الكبر أو الحسد هو من صفات المنافقين أيضاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: 13] "من صفتهم كذلك التطاول والتعالي على عمّة الناس، ليكسبوا لأنفسهم مقاماً زائفاً في أعين الناس" (107).

(103) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، رقم الحديث: (91)، ص: (93 / 1).

(104) ينظر: الزبيدي، تاج العروس (518 / 19)، مادة (غ م ط).

(105) الحديث السابق، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، رقم الحديث: (91)، ص: (93 / 1).

(106) في ظلال القرآن (5 / 3028).

(107) في ظلال القرآن (1 / 44).

جاء في الأثر: "إياكم والكبر فإن إبليس حملته الكبر على أن لا يسجد لآدم وإياكم والحِرص فإن آدم حملته الحِرص على أن أكل من الشجرة وإياكم والحسد فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً فهو أضل كل خطيئة"⁽¹⁰⁸⁾.

ومثل العنصري اليوم الذي يتكبر على خلق الله بما آتاه الله من مالٍ وجاه، كمثّل قصة صاحب الجنتين، وقد غرَّ صاحب الجنتين ما بين يديه، فامتلاّت نفسه بما عنده من نعم الله قال سبحانه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]، "يزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، ويتنفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير"⁽¹⁰⁹⁾، قد امتلاّت نفسه بالغرور والبطر، ونسي أن ما بين يديه هي من نعم الله التي آتاه إياها، فنسب الخير لنفسه، وبدّل الشكر بالكبر الذي أورثه الكفر، فنسي لمن الملك الحقيقي، وأن ما معه من نعمة فهي زائلة فانية ولن تغني عنه من الله شيئاً.

فهاتان الصفتان مذمومتان، دافعتان لما وقع في الشيطان من الكبر والطغيان، وسبب في امتناع اليهود والكفار عن قبول رسالة الإسلام، فالإعراض عن الحق واحتقار الخلق هما السلوك العنصري الواضح، والناظر في عصرنا يجد ألواناً من العنصرية منبعها الكبر أو الحسد، فيغترّ الناس بما في أيديهم من أموالٍ أو ثروات، ويظنون أن لهم بهذا فضلاً ورفعةً على غيرهم، ويغترّ من بيده سلطةٌ فيغيره الكبر حتى يتسلط على الناس، ومن ذلك ما نشأ من الطبقات الإقطاعية والبرجوازية في القرنين الماضيين⁽¹¹⁰⁾، فترى في ظلّ هذه الأنظمة المجتمعية ألواناً من الظلم والاستكبار لا مثيل لها، هضمٌ للحقوق، وتعذيبٌ للأجساد، ونهبٌ للثروات، كلُّ ذلك بغير وجه حق.

ثانياً: العصبية الجاهلية:

(108) المناوي، زين الدين محمد، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، 1356هـ، (3/ 131)، حرف الهمزة، رقم الحديث: (5016)، وفي هذا الحديث مقالاً، قال ابن السبكي: لم أجد له إسناداً، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (4/ 1842).

(109) في ظلال القرآن (4/ 2270).

(110) الإقطاعية: هو نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي، والطبقة الإقطاعية هي طبقة كبار ملاك الأراضي، البرجوازية: هي طبقة اجتماعية ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تمتلك رؤوس الأموال والحرف، كما تمتلك كذلك القدرة على الإنتاج والسيطرة على المجتمع ومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها، للمزيد ينظر: موسوعة ويكيبيديا

<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5>، <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%>

قال الأزهري: العَصَبِيَّةُ: أَنْ يَدْعُوَ الرَّجُلُ إِلَى نُصْرَةِ عَصَبَتِهِ وَالتَّأَلُّبِ مَعَهُمْ عَلَى مَنْ يَنَاقِضُهُمْ، ظَالِمِينَ كَانُوا أَوْ مَظْلُومِينَ⁽¹¹¹⁾، وقال ابن منظور: "وَالْعَصَبِيَّةُ: أَنْ يَدْعُوَ الرَّجُلُ إِلَى نُصْرَةِ عَصَبَتِهِ، وَالتَّأَلُّبِ مَعَهُمْ، عَلَى مَنْ يُنَاقِضُهُمْ، ظَالِمِينَ كَانُوا أَوْ مَظْلُومِينَ"⁽¹¹²⁾.

جاء الإسلام ليخرج الناس من جاهلية عمياء إلى نور الإسلام وهداه، وعمل على تخلص النفوس من رواسب الجاهلية وما يتعلق بها، "الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية"⁽¹¹³⁾، فجمع الأمة على شريعة واحدة وعقيدة واحدة وقبله واحدة.

والعصبية تؤدي إلى اختلال النظام المجتمعي واضطرابه، فتتفكك المجتمعات وينعدم الاستقرار، لذلك قام الإسلام على نبذ العنصرية والعصبية الجاهلية بكل أشكالها ومظاهرها والتبرؤ منها، وأسس مجتمعاً متماسكاً يخلو من الفتن والتباغض والفرق وغير ذلك من الأمراض؛ من خلال منهج رباني يُنظِّم العلاقات الإنسانية، ويعالج الأمراض الجاهلية.

بدأ الإسلام بالنهي عن العصبية الجاهلية إذ هي من صفات الكُفَّار قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ [الفتح: 26] "حمية لا لعقيدة ولا لمنهج. إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت... ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين وينتهكون حرمة البيت الحرام"⁽¹¹⁴⁾، وهي التي صدّتهم وصدّت كثيراً من صناديد الكفر عن الاستجابة للدعوة، عصبية لقبيلتهم أو عشيرتهم أو طريقتهم، لا تقوم على أساس من الحق أو العدل، بل هي كقول الشاعر:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ ... غَوِيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَتْ غَزِيَّتُهُ أَرَشُدُ⁽¹¹⁵⁾

(111) الهروي، محمد بن أحمد، (ت: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان،

الطبعة: الأولى، 2001م، (2/ 30)، باب العين والصاد مع الباء.

(112) ابن منظور، لسان العرب (1/ 606)، فصل العين المهملة.

(113) في ظلال القرآن (1/ 126).

(114) في ظلال القرآن (6/ 3329).

(115) القرشي، محمد بن أبي الخطاب (ت: 170هـ)، جمهرة أشعار العرب، تحقيق: علي البجادي، دار نخضة مصر للطباعة والنشر،

الطبعة: بدون، (ص: 468).

نصرة للعصبة على أي حال كانت، من حق أو باطل، ظالمة أو مظلومة، وقد نهي عن ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية"⁽¹¹⁶⁾، عصبية لقبيلة أو جماعة يربط بينها شيء مشترك، عصبية على حق أو باطل سواء، لا يقبل ذلك عقل ولا دين ولا شرع، وقد وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تشريع وتصحيح للمفاهيم الجاهلية كيف تكون النصرة لابن القبيلة أو الأخ ظالماً كان أو مظلوماً فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»⁽¹¹⁷⁾، نعم تحجزه عن ظلمه، فالحق أحق أن يتبع، وليس لقربة أو عصبية استثناء من هذا، وهو ما ربى عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته الكرام عليه، فلا شفاعة في الحدود، ولا تمييز في العطايا، والشرع والعدل هو الميزان لا ميزان غيره، لا القرابة ولا الصلة ولا القبيلة لها اعتبار، فلا هي مُقدّمة في حق أحد أو مؤخرة، إنما القسط والعدل.

مع هذا بقي شيء من أدران الجاهلية في النفوس، وتظهر عند الغفلة وضعف الإيمان، فتظهر نعة الجنس أو القومية التي ينتمي إليها، والرايات العنصرية التي يدعو لها، تعصب يُبنى على أمور جاهلية، حدود بين أبناء الأمة الواحدة، تفرق بينهم، فتعطي أناساً وتمنع آخرين على أساس ذلك، بل وقد تقام النزاعات بين أبناء الأمة الواحدة والدين الواحد لأجل حدود متوهمة، كما ظهر داخل البلد الواحد أشكالاً من العنصرية، فظهرت طبقة المواطنين أصحاب الحقوق وأبناء البلد الذين يتمتعون بالامتيازات على حساب غيرهم، وهؤلاء هم صنف واحد قاموا إما على الاعتبار العرق كما في النازيين، أو اللون كما البيض في أمريكا وأستراليا، أو الطائفة كما اليهود في فلسطين.

جنس واحد وطبقة واحدة هي صاحبة الحقوق، وبقية الطبقات تابعون لهم، وهذا بعيد كل البعد عن المنهج القرآني الذي تربى عليه الصحابة، فقد جمع الإسلام تحت رايته كل الأعراق والأجناس، من عربي وفارسي وتركستاني وهندي وإفريقي وصيني، وكل الألوان من أبيض وأسود وأصفر، وكل اللغات من عرب وعجم، "تجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة

(116) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ت(275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين، المكتبة العصرية ببيروت، الطبعة: بدون، باب في العصبية، رقم الحديث: (5121).

(117) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، رقم الحديث: (6952).

يوماً ما «عربية» إنما كانت دائماً «إسلامية»... ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة، وبأصرة الحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة" (118).

ثالثاً: التفاخر بما ليس مدعاةً للفخر:

وهذا فعل إبليس الأول، لما استنكف عن السجود لآدم بدعوى أنه خيرٌ منه بسبب أصل الخلقة، فهو مخلوق من النار، وآدم عليه السلام من الطين، والنار في قول إبليس هي خيرٌ من الطين، قال تعالى واصفاً موقف إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، وهذه دعوى من غير دليل أصلاً، فمن الذي جعل أصل العنصر الذي خُلِقَ منه إبليس أفضل من العنصر الذي خُلِقَ من آدم، ثم لو سلمنا جدلاً فضل عنصر النار على الطين، ما الذي يدعو للتفاخر على العنصر الآخر أو الجنس الآخر، إنما هو أمرٌ لا علاقة للمخلوقات به، بل هو اختيار الخالق سبحانه وتعالى وصنّعه، وهذا افتخارٌ بما ليس محلاً للفخر، لذلك جوزي إبليس باستنكافه عن السجود بالطرد من رحمة الله.

وكذلك الممارسات العنصرية التي تجري في زماننا وكلّ زمان، تقوم على افتخار وتفضيل بما ليس مدعاةً لذلك، إنما هو الهوى والتشهي، والأشياء والعناصر إنما تنال تفضيلها وافتخارها بما اختصها به الله عزّ وجلّ، وما يفعله بنو الإنسان أعجب مما فعله إبليس، فإبليس يفتخر بعنصره على عنصرٍ آخر، والبشر يفتخرون على أبناء عنصرهم من البشر دون وجود ما يدعو لذلك، وهي قمة الغفلة.

وليس في الاختلاف بين بني البشر ما يدعو للفخر، فاختلاف الألوان والأجناس واللغات، واختلاف الأراضي والأنساب اختلافٌ لا يدعو للعنصرية والتمييز، بل هو تنوعٌ مراده التعاون والتكامل لعمران هذه الأرض، والتكافل بجميع الحاجات، وليس لهذه الفروقات وزنٌ عند الله تعالى⁽¹¹⁹⁾، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ أَلَسْتُمْ بِالَّذِينَ أَنْزَلَ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22]، نعم آيةٌ من آيات الله سبحانه وتعالى، ينبغي للإنسانية جمعاء أن تقف وقفة تدبر وإيمانٍ بمراد الخالق، وقفة تمجيدٍ للخالف المدبر العالم بأسرار الخلق وحكمته⁽¹²⁰⁾، وألا تضع اعتبارات وفروقات ما أنزل الله بها من سلطانٍ أو بيان، ولا يقام لها في ميزان الحق والعدل اعتبار.

(118) في ظلال القرآن (3/ 1562).

(119) ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3348).

(120) ينظر: في ظلال القرآن (5/ 2764).

رابعاً: غياب الروابط الجامعة:

تدخل الإنسانية في تيهٍ وظلام إذا غاب عنها نور الوحي وهداية الله عزَّ وجلَّ، وتنتشر النزاعات والممارسات العنصرية بأشكالٍ شتى، هذه الهداية التي جاءت لتخرج العبادَ بسلوكهم وأخلاقهم وأموالهم وسائر أحوالهم من اتباع الهوى والتيه في مدارك الضلال، تخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد؛ هذه أول رابطة للإنسانية، منها المبدأ وإليها المعاد، وإذا غفلت الإنسانية عن وحدة خالقها وموجدها، لاريب أن تنتشر بينها دواعي الفرقة والتمييز.

وفي البعد عن حقيقة هذا الكون والإيمان بوحدة موجدته وخالقه ستتهى الإنسانية في مدارك الضلال، ضلال في التصورات والعقائد بعبادة الأصنام وإدعاء أنَّ الملائكة أبناء الله، وضلالٌ في التشريعات بتحريم ما أحلَّ الله من الأنعام أو الطعام أو التصرفات، وتحليل ما حرمه من الربا والأنكحة والنذور، وضلال في الحياة الأخلاقية والاجتماعية بظهور العنصرية بتجلياتها من التمييزات الطبقية والعرقية، ظهرت كلُّ هذه الضلالات لأنَّ الإنسانية لا تفي إلى ميزانٍ واحد، ولا تحرر نفسها لتنتقل من الفوضى إلى النظام، ومن التشتت إلى الوحدة، ومن التيه إلى القصد بالإيمان بالله وحده⁽¹²¹⁾، "حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق، والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها"⁽¹²²⁾.

بغيب الإيمان بالله وحده خالقاً ومدبراً لهذا الكون سيغيب الإيمان بالقضاء والقدر، غياب الإيمان بما قدَّره الله على الخلق من أحوالٍ، فهو مُقدِّرُ الأرزاق سبحانه، وهو خالق الأجساد ومقدِّرُ لونها وطولها وقدرها، بيده سبحانه أن يكون الإنسان في أرض دون أرض، وأهلٍ دون أهل، وغنى أو فقر، وأبيض أو أسود، بيده تصريف الأمور كلها، فإذا غابت هذه الحقيقة عن الإنسان، تسخَّط واعترض، وتنافس وارتفع على أبناء جلدته، فيغتَرُّ كما اغترَّ إبليس، بظنه أنَّه خلق من نارٍ أفضل من خلق آدم من الطين، ويظن الإنسان أنَّه خلق أبيض فهو أفضل من الأسود، ولا يدري حكمة الله وقضائه في هذه الاختلاف، بغيب الإيمان بالقضاء والقدر سيغيب التسليم والرضى، ويظهر التنافس والحسد والشح، فلن يرضى أحدٌ بما قسم له، وهذا هو الضلال الذي ستسير الإنسانية فيه بغيب الإيمان بالخالق الواحد الذي بيده تقدير الأمور وتصريفها.

ومن صور غياب الروابط الجامعة بين الإنسانية اليوم غياب الإيمان بالرسالات والكتب، هذه الرسالات التي تربط بين الناس بخالقها الواحد، فهذه الرسالات واحدة المنهج، واحدة المصدر، واحدة المعتقد، أمَّا إذا غابت هذه الحقيقة فستظهر الضلالات

(121) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159) و(1/ 199).

(122) في ظلال القرآن (1/ 43).

في الاعتقاد أولاً، ثم سيظهر الصراع؛ صراع لا بد منه، فلا يرضى الحق للباطل أن يظهر، والباطل يخاف من وجود الحق ومزاحمته إياه⁽¹²³⁾.

وغياب الإيمان باليوم الآخر، يوم العدل الجزاء، يوم القصاص والحساب، الإيمان بأن الأمر مرده كله لله، وأن هذه الدنيا فانية، وأن فاعل الخير لا يعدم الجزاء إما في الدنيا أو الآخرة، وأن للظالم حساب عاجل أو آجل، إيمان بالعدالة الإلهية المطلقة، إذا غاب هذا التصور، وغابت هذه الحقيقة المطلقة تعجل البشر كل شيء، تعجلوا الملمات المحرمة، وتعجلوا الانتقام وتحصيل الحقوق، وأكثروا السخط من حق لا يسترد في الدنيا، أو عدل لا يتحقق، بعيداً عن الإيمان باليوم الآخر سيزيد الظالم من ظلمه وطغيانه، ويأس المظلوم من حقه، بدون الإيمان باليوم الآخر ستظهر العقائد الفاسدة والمذاهب الضالة، فلا يدري الإنسان لم خلق، وما هي غايته في هذه الحياة، وإلى أين سيفضي بعد الموت، بغياب الإيمان باليوم الآخر⁽¹²⁴⁾.

المطلب الثاني: أنواع العنصرية

تتجلى العنصرية في مظاهر شتى، تختلف وتتنوع باختلاف الزمان والمكان، وللعنصرية أنواع مختلفة تتعدّد بتعدّد الأسباب التي ذكرناها آنفاً، انتشرت أنواع من العنصرية في العصور الجاهلية كالعنصرية بالنسب، فتفاخرت العشائر على بعضها بالآباء والأحساب، وانتشرت في القرون الوسطى في أوروبا عنصرية اللون باستعباد الأفارقة السود، وانتشرت عنصرية العرق في بعض البلاد الأوروبية، كما في عنصرية العرق النازي والآري، وانتشرت على مرّ العصور إلى يومنا هذا العنصرية بين طبقات المجتمع الواحد واللون الواحد، كذلك العنصرية الطائفية في أبشع مظاهرها التي يمارسها اليهود ضد المسلمين.

أولاً: عنصرية الجنس:

تعود جذور العنصرية بالجنس والأصل إلى مرحلة ما قبل الإسلام، فهي عند الروم واليونان كما هي عند عرب الجاهلية، تقوم هذه العنصرية على اعتقاد أن نسبة الإنسان إلى نسل أو عرق معين هي التي تحدد قيمته وفضله، وأن الخصائص التي يمتلكها

(123) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159).

(124) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159).

هذا الجنس متفوقة على غيره من الأجناس، وفقاً لهذه النظرة تعتقد بعض المجتمعات العنصرية امتلاكها صفاتٍ تؤهلها للتفاضل على الآخرين والاستعلاء عليهم⁽¹²⁵⁾.

بدأت هذه الظاهرة واضحةً عند العرب قبل الإسلام، تفاخروا بالقبيلة والعشيرة، واستعلاء بالأحساب والأنساب، تحكم هذه الظاهرة كثيراً من تصرفاتهم، فهي أصل كثيرٍ من النزاعات والنزعات المنتشرة بينهم، فانتشرت بينهم حروبٌ طاحنة، واستمرت الفقرة والنزاع أعواماً، وكما ظهرت العنصرية في أفعالهم فقد ظهرت في أقوالهم وأشعارهم.

من أوضح تلك الحوادث حرب البسوس التي استمرت عقوداً من الزمن، بين قبيلتين من العرب، وراح ضحية تلك الحرب الآلاف من القتلى من القبيلتين بكرٍ وتغلب، وأشعلت نار الثأر بين أحياء العرب مُدَّةً من الزمن، وكذلك ما جرى بين قبيلتي عبيسٍ وذبيان في حرب داحس والغبراء، حروبٌ دامية، وخلافاتٌ عميقة، تقوم على أساس نصرة القبيلة والعشيرة على أي أمرٍ، حقاً كان أم باطلاً، ظالماً أو مظلوماً، لا مكان في هذه العصبية للعقل أو الشرع أو الحق، بل التحيزُ والمناصرة تكون على أساس الانتساب لهذه القبيلة فحسب.

وكانت بطون العرب تفتخر على بعضها في غير زمان الحرب أيضاً، فتفتخروا تغلباً على بكر، والأبيض على الأسود، والرجل على المرأة، والسيد على العبد.

وفي شعر العرب ظهرت العصبية للقبيلة والافتخار بها، والطعن والقذح بغيرها، فتجد الشاعر ينسب الفخر لنفسه وقبيلته، فليس ذلك إلا لهم، والغلبة والنصر منسوبٌ إليهم، من ذلك ما قاله عمرو بن كلثوم⁽¹²⁶⁾ في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونشربُ إن وردنا الماء صفواً
ويشربُ غيرنا كدراً وطينا

لنا الدنيا ومن أضحى عليها
ونبطشُ حين نبطش قادرينا⁽¹²⁷⁾

وهو القائل:

(125) عاشور، السيد محمد، التفرقة العنصرية، ص: (9).

(126) هو عمرو بن كلثوم بن عتَّاب، شاعر جاهلي صاحب إحدى المعلقات، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ)، الشعر والشعراء، دار الحديث، 1423هـ، ص: (228/1).

(127) ابن عبد ربه، شهاب الدين الأندلسي (ت: 328هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1404هـ، (5/ 344).

ومن شعرهم في الثأر الجاهلي الذي لا ينقضي، وذلك في ثأر كليب الذي قامت لأجله حرب طاحنة يقول المهلهل عدي بن ربيعة⁽¹²⁸⁾، وهو الذي سعى في ثأره ولم يكف عن سفك الدماء ثأراً لأخيه، لأنه لا يجد في العرب كُفأً له، فأين يقف القتل إذاً، وأي عصبية هذه:

أكثرُ قتل بني بكرٍ برَّهم
حتى بكيتُ وما يبكي لهم أحدُ
آليتُ بالله لا أرضى بقتلهم
حتى أُخرج بكرًا أينما وجدوا⁽¹²⁹⁾

وهذه الحمية الجاهلية هي المانعة من قبول الحق، فتعصّب الرجل لقبيلته والإصرار على اتباع ما وجدهم عليه هو ما منع صناديد قريش وأسلافهم من أعداء الأنبياء من قبول دعوة الإسلام، فأبى تقليد أعمى، وأي عصبية صماء، وقد وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170] وما حالهم بعد الإعراض، أين عقولهم التي يفقهون بها، وأين أعينهم التي يبصرون بها، وأين آذانهم التي يسمعون بها، ألا تنفهم، هي "صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا يعني! بل هم أضل من هذه البهيمة، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صم بكم عمي"⁽¹³⁰⁾.

ومع موسى عليه السلام كان الإعراض بسبب التعصّب لموروث الآباء ومعتقداتهم، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: 78] خوف من ترك المعتقدات الموروثة التي تقوم حياتهم، دفعتهم إلى مقاومة الدعوة، واختلاق الأعداء، ورمي الأنبياء والدعاة بأبشع التهم، والفجور في محاربتها⁽¹³¹⁾.

وفي سياق آخر تأتي الآية واصفةً عنادهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: 21] وأي عُذر هذا، وهل هذا إلا تقليد أعمى، وعقل جامد متحجر، لا

(128) وهو عدي بن ربيعة بن مرة، من تغلب، من أبطال العرب في الجاهلية، وهو خال الشاعر امرئ القيس، ولقل بالمهلهل لأنه أول من هلهل نسج الشعر ورققه، وقد قامت بين العرب حرب بين بكرٍ وتغلب بعد مقتل أخيه كليب الذي قتله جسّاس بن مرة، ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ص: (288/1).

(129) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد (6/76).

(130) في ظلال القرآن (1/155).

(131) ينظر: في ظلال القرآن (3/1814).

يقوم على علمٍ ولا تفكير، تقليدٌ أعمى يريد الإسلام أن يحرر البشرية منه، ويطلق عقولهم وأجسادهم من نير هذه الجاهلية، ليزرع فيها الحركة والنور، لكن يأبي فريقٌ من الناس اتباع الحق رغم جلالة، لتعصبه وتعنته كحال القائل: "كَذَّابٌ رَيْبَعَةٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادِقٍ مُضَرٍّ" (132)

قد تبلغ العصبية للقبيلة مبلغاً لا يتصوره العقل، فهذا هو أبو طالبٍ على فراش الموت، وليس بينه وبين قبول دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا نطق الشهادتين، وصناديد قريش فوق رأسه يثنونونه عن ذلك، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجو إسلامه يقول: "أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ" وأبو جهلٍ وعبد الله بن أمية فوق رأسه يُذكرونه بميراث الجاهلية، ويصدونه عن الدعوة، ويستثيرون فيه حمية الجاهلية، أترغب عن ملة عبد المطلب، حتى كان آخر شيء قاله: "على ملة عبد المطلب" (133)

وكذلك عند غير العرب، فقد ظهرت أعراقٌ تزعم لنفسها خصوصيةً وتميزاً عن بقية الأعراق، كالعصبية عند الجنس الآري (134)، وهي ظاهرة متكررة على مر الزمان، ولا تقتصر الدعوى على قومٍ بينهم لغة أو قومية مشتركة، بل على دمٍ وعرقٍ أنقى من بقية الأعراق، فادّعى النازيون الألمان لنفسهم سمات عقليةً وجسديةً تميزهم عن غيرهم لمجرد انحدرهم من هذا العرق، وانعكست هذه العصبية على قرارات الحكومة الألمانية عند وصول العنصريين إلى السلطة، حيث طبقوا قوانين وسياسات عنصرية ضد بقية الأعراق.

كذلك العنصرية السامية عند اليهود، الذين اختصوا أنفسهم خصائص كمجموعةٍ عرقية ودينية وإثنية (135)، وأنهم أي الساميون هم أبناء سام بن نوح عليه السلام، وهو تقسيم قديمٌ للأجناس البشرية، وعلى إثر اختصاصهم بأنفسهم بأنهم من سلالة نوح وأنهم شعب الله المختار وإدعاء تفوقهم على بقية الأعراق، خرجوا بدعوى المظلومية، وغدت معاداة السامية تهمّةً جاهزةً لأي رافضٍ لاستيطان اليهود واعتداءاتهم، يُتهم بأنّه كارهٌ لليهود معادٍ لهم لمجرد جنسهم أو دينهم وهذه مغالطة واضحة، واستند

(132) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الجزري (ت: 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ، 1997م، (2/ 216).

(133) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم الحديث: (3884)، ص: (5/ 52).

(134) عاشور، السيد محمد، التفرقة العنصرية: ص: (10).

(135) للمزيد: عاشور، السيد محمد، التفرقة العنصرية، ص: (151)، موسوعة ويكيديا، مصطلح معاداة السامية،

<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85>

الصهيانية إلى هذه المظلومية لخدمة أهدافهم القومية والعدائية في فلسطين، وأصبح التفسير الأول لأي عملٍ مناهضٍ لليهود قديماً وحديثاً يُفسَّر تفسيراً عنصرياً، فهو يضع اليهود في جهة ويضع البشرية جمعاء في جهةٍ أخرى⁽¹³⁶⁾.

تقوم النظرية العنصرية بالتعصب للأعراق والأنساب على أنَّ الخصائص والصفات الموروثة هي التي تحدد السلوك البشري كما أنها تحدد المنزلة الاجتماعية، فيدَّعي أفرام امتلاكهم مقوماتٍ جسدية وعقلية ونسبية متفوقةً على غيرهم من الأقوام بمجرد الانتساب لهذا العنصر أو العرق لا لسببٍ آخر، ولكنَّ العلم يؤكد عدم وجود اختلافات طبيعية في القدرات العقلية أو في الذكاء سببها الاختلاف العرقي⁽¹³⁷⁾.

وقد وجد في المجتمع الأول بقيةً من رواسب الجاهلية، فأشار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها وعالجها، ونهى عن كُلِّ عصبيةٍ للقبيلة أو النسب أو اللغة أو الجنس، وحذَّر من كل سببٍ يؤدي لانتشار الحقد والتباغض والتنافس بين الناس، فخطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة فقال: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمُ غُبَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاضَمَهَا بِآبَائِهَا، فَالْنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ"⁽¹³⁸⁾، وحذَّر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشدَّ تحذيرٍ من افتخار الناس على بعضهم بآبائهم، وتفاضلهم بأنسابهم، وتعصبهم لقبائلهم، فقال: "لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ"⁽¹³⁹⁾، وقد جرى عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يجري من التفاخر بين الناس بأنسابهم وآبائهم، فقصَّ لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جرى عند موسى عليه السلام موجهاً ومعلماً: "انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمُّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ ". قَالَ: "فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُتَنَسِّبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَنَمِّي أَوْ الْمُتَنَسِّبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ

(136) للمزيد يُنظر: مقال اليهود وفكرة العدا للسامية، الجزيرة نت،

<https://www.aljazeera.net/2004/12/22/%D8%A7%>

(137) يُنظر: خليل، محمد شحاتة، التمييز العنصري وأحكامه في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة ص13، المجلد الخامس من العدد الرابع والثلاثين ص822 لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية.

(138) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات، رقم الحديث: (3270)، ص: (5/389).

(139) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، وقال الترمذي: حديثٌ حسن، رقم الحديث: (3955)، ص: (5/734).

يَا هَذَا الْمُتَنَسِّبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ"⁽¹⁴⁰⁾، وهذا التحذير من الافتخار ليس محرماً لذاته، بل لما يؤدي له من التنافس والتباغض، فلا تعصب لغير الحق، ولا فضل لأحدٍ على أحد بمجرد الانتساب لقبيلة أو عشيرة ما، وقد وجَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة بقوله: "تَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ"⁽¹⁴¹⁾.

العنصرية القومية:

القوم في اللغة: الجماعة من الرجال والنساء، وقومُ الرجل: عشيرته وشيعته⁽¹⁴²⁾، والقومية: "هي نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يتميز بتعزيزه مصالح أمةٍ مُعَيَّنَةٍ"⁽¹⁴³⁾، والقومية اليوم هي رابطٌ مشتركٌ تقوم الدول على أساسه، باعتبار انتساب أبنائها للغةٍ معينة أو بلدٍ أو معينٍ أو عرق معين، والوطنية: "هي الحالة التي تربط بين الجماعة البشرية وموطنها، وحدود الوطن تكون سياسية وقانونية، والأساس في المواطنة اليوم هو الانتماء للقوم، بمعنى الإقامة"⁽¹⁴⁴⁾ بدأت ظاهر القومية تزداد في العالم العربي والإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية، التي كانت هي الرابطة التي تجمع الأمة الإسلامية، وبتحريش من الغرب على رأسهم بريطانيا وفرنسا، وحاكمة للمؤامرات، أخذت الدعاوى القومية مكانتها في العالم العربي والإسلامي، وأخذت القوميات العربية والتركية والكردية والفارسية بأخذ دورها كعقدٍ يجمع بين أفراد هذه القوميات بعد غياب الرابطة الإسلامية، والقومية ظاهرة أقدم نشأة عند الغرب في أوروبا، كما لا تخلو العصور القديمة من نزعاتٍ قومية كاعتزاز العربي بعروبيته، والفارسي بفارسيته...

غدت الدعاوى القومية العربية تجذُّ رواجاً أيام ضعف الخلافة العثمانية، ورَّجوا للعصبية للعرب ضد الأتراك، وأضحى المسلم العربي غير المسلم التركي، وبعد اتفاقية سايكس بيكو وتقسيم العالم الإسلامي زادت الانتماءات القومية بشدة، فلم تعد القومية

(140) ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: 241هـ)، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ، 2001م، (35/ 110)، مسند الأنصار، حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب، رقم الحديث: (21178).

(141) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، رقم الحديث: (8868).

(142) لسان العرب (12/ 505)، فصل القاف.

(143) موسوعة ويكيبيديا، مصطلح: قومية، <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%>

(144) خلف الله، محمد أحمد، القومية العربية والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة: الثالثة، 1988م، ص: 23-24.

عربيةً وتركيباً فحسب، بل أضحى لكلِّ بلدٍ مرسوم بيد الأعداء حدُّ من الحدود ينافح دونه، وينتسب إليه، ويعتبره رابطةً تجمع أبنائه تحت راية قومية أو قطرية، بل وظهرت بعض النزعات التي تدعوا إلى قومية أقدم من العروبة والإسلام، فظهرت في مصر دعاوى تنسب نفسها إلى الفرعونية، وفي لبنان إلى الفينيقية.

ومن أشهر الأمثلة التي ذكرها سيد قطب الإمبراطورية الرومانية، فقد كانت من أكبر التجمعات البشرية التي تضمُّ أجناساً ولغاتٍ متعدّدة، ولكن هذا التجمع لم يقيم على أصرة الإنسانية، بل كان هناك تجمعٌ على أساسٍ طبقي بين الأشراف والعبيد، وتجمع عنصري يعتمد على سيادة الجنس الروماني وعبودية سائر الأجناس الأخرى، وقامت أيضاً تجمعات أخرى كالإمبراطورية البريطانية، لكنه تجمعٌ قومي يقوم على أساس تفوق القومية الإنكليزية، ومثلها الإمبراطوريات الأوربية⁽¹⁴⁵⁾.

جاءت الانتماءات القطرية التي تعتبر أبناء الأرض الواحدة ضمن الحدود المرسومة تجمع بين أبنائها برابط الانتساب لهذه الأرض رغم وجود فروقات بينهم، وهي بذات الوقت تفرقهم عمّن هم خارج هذه الحدود وإن كان بينهم مشتركات، فغدت هذه الحدود المرسومة معقد الولاء والبراء، ويقام السلم والحرب على شبرٍ منها، ولم يُعد هناك اعتباراً للدين أو اللغة داخل هذه الحدود، فالعبرة فقط للانتماء لهذه البقعة من الأرض.

وهذه الولاءات المتعددة تقسم الأمم ولا تجمعها، وحين تأتي دعوة الحق، وتصدع الدعوة في وجه الجاهلية، ينقسم الناس إلى قسمين، قسمٌ نبت فيهم لوثة القومية وحمية القرابة، وقومٌ جمعت بينهم وشيجة العقيدة⁽¹⁴⁶⁾، "إن الله - سبحانه - يأمر أن تكون رابطة التجمع هي العقيدة.. ولكن «القومية» أو «الوطن» يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة"⁽¹⁴⁷⁾.

ويُعبّر الشيخ أبو الحسن الندوي عن فضاغة الدعوة إلى القومية بشكل عام، وإلى العربية بشكل خاص، لأنّها انقلابٌ على الرابطة الأعظم، والرسالة الأسمى فيقول: "من المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الإيمان وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم، وعن أمتين رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد والأشتات. إنها جريمة قومية تبرز جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ

(145) ينظر: في ظلال القرآن (3/ 1563).

(146) ينظر: في ظلال القرآن (3/ 1305).

(147) في ظلال القرآن (3/ 1413).

هذه الأمة، وإنها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ، وإنها خطوة حاسمة مشؤومة في سبيل الدمار القومي والانتحار الاجتماعي" (148)

ويُبين القرآن طبيعة العلاقات في المجتمعات المسلمة، وبينها وبين المجتمعات الأخرى، وما هي القواعد الناظمة لها، فهي ليست علاقات الدم أو الأرض أو الجنس، ولا علاقة للتاريخ أو اللغة أو الاقتصاد، وليست هي القرابة أو الوطنية أو القومية، إنما هي علاقة العقيدة والقيادة والتنظيم الحركي لهذا المجتمع (149)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 72].

وقد عالج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجتمع الأول كلِّ داعٍ يدعو إلى عنصرية قومية، كما في قصة سلمان رضي الله عنه، وعن كونه فارسي أو عربي، هذه النظرة الضيقة والعنصرية لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسمح بها، فقال بوضوح مبيناً هذا الأمر: " سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ " (150)، فهذه مقولة حاسمة لهذا الأمر، تتجاوز كلَّ حدود النسب التي يعتزُّ بها البعض، وكلَّ الحدود القومية الضيقة التي يتحمس لها البعض، ونسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآل البيت رأساً، لمعقد النبوة وآل البيت (151).

أظهرت الأحداث المعاصرة فشل الدعاوى التي تقوم على توحيد المجتمع على أساس قومي أو قطري، بل ظهرت كثيرٌ من المضلالات المعاصرة، كمسألة حصول المواطن على جنسية مزدوجة، ومنع الطفل من الحصول على جنسية والدته إذا كان والده أجنبياً عن هذه البلد، وكالتمييز الحاصل بين المقيم والمسافر، وبين أبناء الدين الواحد واللغة الواحدة الذين تمنعهم الحدود القطرية من ممارسة حريتهم، والتمييز القائم ضد الأشخاص غير المواطنين، وموجات معاداة اللاجئين فقط لكونهم لا يحملون جنسية هذا البلد أو لا ينتمون إليه.

أمَّا التصور الإسلامي، فإنه ينبذ كلَّ الانتماءات القومية التي تحول بين بني البشر، وتركيز نار الفرقة والتنافس بينهم، بل قام المجتمع المسلم على التنافس في أعمال البرِّ والتقوى، تنافسٌ مبني على قيمٍ إسلامية، كالسابقين من المهاجرين والأنصار، ومن

(148) الندوي، أبو الحسن، اسمعوها مني صريحة أيها العرب، الناشر والطبعة: بدون، ص: (26).

(149) ينظر: في ظلال القرآن (3/ 1554).

(150) المعجم الكبير للطبراني، باب السين، سلمان الفارسي، رقم الحديث: (6040)، المستدرك للحاكم، كتاب معرفة الصحابة،

ذكر سلمان الفارسي، رقم الحديث: (6539).

(151) ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3827).

شهدوا بدراناً، وأصحاب بيعة الرضوان، ومن أنفق في سبيل الله من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل وهكذا⁽¹⁵²⁾،... "لما تقررت في القلوب: «لا إله إلا الله» صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون، تطهرت الأرض من الرومان والفرس، لا ليتقرر فيها سلطان العرب؛ ولكن ليتقرر فيها سلطان الله، لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء"⁽¹⁵³⁾.

ثالثاً: عنصرية اللون:

تُعاني الإنسانية من ألوان العنصرية بسبب غياب نور الوحي عنها، وأغرب أنواع العنصرية تلك العنصرية المبنية على اختلاف ألوان الناس وأجسادهم، كيف للإنسان أن يسخر من أخيه الإنسان، وكيف له أن يستعبده أو يحط من قدره على أساس لونه، والأعجب أن بني الإنسان يعلمون أنه لا يد لهم في اختيار ألوانهم ولا أشكالهم ولا أنسابهم.

وارتبط الإنسان الأسود خصوصاً بشق أنواع التمييز العنصري بسبب لونه، حيث نزعته منه حقوقه الإنسانية وآدميته، وتم استعباده لعقود على يد المستعمرين البيض من بريطانيا وأمريكا، يرى الإنسان الأبيض أنه من سلالة أرقى وأفضل من غيره، وأنَّ التخلف والمجحية مرتبطة دائماً بالإنسان الأسود، والحضارة والرقى مرتبطة بالإنسان الأبيض، وهذا الإدعاء غير علمي ولا يبنّي على أدلة عقلية أو علمية.

وساهمت النهضة الأوروبية على احتلالهم لبلاد مختلفة في إفريقيا خصوصاً، وعملوا على نهب ثروات هذه البلاد وتسخير أبنائها في العمل عندهم، واستعلى الإنسان الأبيض الأوروبي والأمريكي بتفوقه على الهنود الحمر والزنج الأفارقة، دفعه هذا الاستعلاء لإساءة المعاملة وحرمانه الإنسان الأسود من كثير من حقوقه وآدميته⁽¹⁵⁴⁾.

عنصرية في الحقوق والقوانين، وعصبية جاهلية تتشدد مع السود المستضعفين، دون البيض الأشراف، هذه التفرقة العنصرية التي تغفر للأشراف البيض ما لا تغفره لغيرهم من السود وأصحاب الألوان الأخرى، هذه العنصرية هي الجاهلية بعينها⁽¹⁵⁵⁾، ففي

(152) ينظر: في ظلال القرآن (3/ 1564).

(153) في ظلال القرآن (2/ 1008).

(154) ينظر: الخطيب، عمر عودة، نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية: 1398هـ، 1978م، ص: (107-108).

(155) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 629).

ولاية ألاباما سنة 1955 صدر قانون يمنع المواطنين من أصحاب البشرة السوداء من الجلوس في الأماكن المخصصة للبيض في وسائل المواصلات، وفي سنة 1965 حرم المواطنون الإفرو-أمريكيين من التصويت في الولايات المتحدة⁽¹⁵⁶⁾.

يُشكل المسلمون السود في الولايات المتحدة نسبة كبيرة من عدد المسلمين المتواجدين هناك، جزء منهم ينتمون إلى الأفارقة الذين سلبتهم الحضارة الغربية أوطانهم، وسيقوا للاستعباد في البلاد الأوربية وأمريكا، وكثيرٌ منهم عانوا من التمييز العنصري والاضطهاد، من خضم هذه المعاناة خرج مالكوم إكس، وهو من أهم الشخصيات التي حركت الجماهير المضطهدة من السود ونادى بحقوقهم، عانى مالكوم إكس في حياته وطفولته ما يعانيه السود في أمريكا، وأثرت التشريعات الإسلامية في صياغة فكر مالكوم إكس، الذي يعتبر الحجج من أهم الشعائر التي تلغي الفروق العنصرية، ساهم مالكوم إكس في المناداة بحقوق السود والمساواة بينهم وبين غيرهم، لكن مثل هذه الدعاوات غير مقبولة في المجتمعات العنصرية، فاعتُيل سنة 1965 على أيدي مجموعة من المتطرفين العنصريين⁽¹⁵⁷⁾.

وقعت منذ عدة سنوات حادثة مروعة نقلتها وسائل الإعلام لوفاة مواطن أمريكي أسود خنقاً، وهو يستنجد بعناصر الشرطة أنه لا يستطيع التنفس، وهم لا يبالون بذلك وهو تحت أقدامهم⁽¹⁵⁸⁾، وهذه حادثة مكررة في المجتمع الأمريكي، تغذت من عنصرية مقيتة، وأدت خلال العقود الماضية إلى كثيرٍ من أعمال العنف والجرائم.

يقول سيد قطب: "ولقد كنت في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية أرى رأي العين.... أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على «الرجل الأبيض» وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة"⁽¹⁵⁹⁾.

وأنت ترى هذه العنصرية البغيضة، تدرك عظمة الإسلام، ترى عظمة تشريعاته وقيمه، وأنَّ اختلاف الألوان والألسن، واختلاف الأخلاق والطباع، اختلافٌ لا يفضي في الأصل إلى النزاع والشقاق، بل يوجب التعاون والتكامل لعمارة هذه الأرض، وليس

(156) ينظر: زكيو مصطفى، العوامل المساعدة في بروز ظاهرة العنصرية، مجلة الدراسات والبحوث الإنسانية، مجلد 7، العدد 1، 2022، ص: (300).

(157) للمزيد ينظر: العنصرية أسبابها ومظاهرها في العالم المعاصر مالكوم إكس نموذجاً، غادة عبد الجليل أحمد الغنيمي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمههور، العدد 5، الجزء 4، 2020، ص: (132) وما بعدها

(158) للمزيد حول قصة جورج فلويد يمكن مراجعة الرابط: <https://www.aljazeera.net/politics/2021/5/25/>

(159) في ظلال القرآن (2/ 1091).

لشيء من لون الإنسان أو جنسه ما يرفع في قدره أو يخفض، بل هذه موازين بشرية ليس من ميزان الله عز وجل في شيء⁽¹⁶⁰⁾، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22] يمرُّ الإنسان اليوم على هذه الآية دون أن يتدبر عظمة الله فيها وحكمته، يدرسون الاختلاف دراسةً موضوعية من غير أن يقفوا على مراد الله منها، ولا يقفون عند تعظيم هذا الخالق والمدير، وفي هذه الآية آيات للعالمين⁽¹⁶¹⁾.

يغفل الإنسان عن حقيقة هذا الكون وعن مراد الله منه، فيمارس عنصريةً على أخيه الإنسان، ولو أنه أدرك الحقيقة الأولى، وهو أن أصلهما واحد، ومردهما واحد، لما وقع في هذا الممارسات البغيضة، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1] أول آية في سورة النساء، تفتتح السورة بتقرير أهم الحقائق الكونية، وهي وحدة البشرية، وحدة تدعو إلى رعاية العلاقات الإنسانية، وأنَّ بينها رحماً وقرابة، رحمةً مبتدأها تقوى الله عز وجل⁽¹⁶²⁾، هذه الحقيقة الفطرية على بساطتها مهمة وعميقة جداً، ولو أدركها الناس لكانت كفيلة بإحداث تغيير كبير في حياتهم، حقيقة أن الناس خلُقوا من نفسٍ واحدة، تذوب عندها كل الفروق الطارئة التي فرقت بين أبناء النفس الواحدة، ومزقت علاقاتهم، هذه الحقيقة كفيلة باستبعاد الصراع العنصري التي تذوق البشرية ويلات، عنصرية تفرق بين الألوان والعناصر، وتقوم على أساس الجنس والقوم، وتنسى النسبة إلى النفس الواحدة والإنسانية الواحدة⁽¹⁶³⁾.

⁽¹⁶⁰⁾ ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3348).

⁽¹⁶¹⁾ ينظر: في ظلال القرآن (5/ 2764).

⁽¹⁶²⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 563).

⁽¹⁶³⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 573- 574).



الفصل الثالث: مبادئ علاج العنصرية في تفسير "في ظلال القرآن"

وفيه مبحثان

المبحث الأول: العقيدة ودورها في معالجة العنصرية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مكانة العقيدة عند سيد قطب

المطلب الثاني: أركان الإيمان ودورها في معالجة العنصرية

المبحث الثاني: التشريع الإسلامي ودوره في معالجة العنصرية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: العبادات ودورها في معالجة العنصرية

المطلب الثاني: المعاملات ودورها في معالجة العنصرية

المطلب الثالث: العدالة الاجتماعية والمساواة ودورها في معالجة العنصرية

الفصل الثالث: مبادئ علاج العنصرية في تفسير "في ظلال القرآن"

المبحث الأول: العقيدة ودورها في معالجة العنصرية

المطلب الأول: مكانة العقيدة عند سيد قطب

إنَّ الإسلام بالعقيدة التي يحملها، والشرعة التي يرسمها يحملُ للنَّاس الخير والسعادة الحقيقية، ذلك أنَّها عقيدة الإيمان بالخالق المدبر لهذا الكون، والشرعة التي ارتضاها خالقُ العباد لعباده، إنَّ العقيدة الإسلامية هي الركيزة الأولى التي تُشكل المجتمع المنشود، وهي العلاج الأهم لأيِّ مريضٍ أو ظاهرة اجتماعية يمكن أن تظهر فيه، تصوغ العقيدة شخصية المسلم الرسالي، الذي يعيش حياته لا كما يعيشها الآخرون، يعيشها خاضعاً وخاشعاً لخالق هذا الكون الفسيح، ويعيشها طموحاً في عمارة الأرض وبناء حضارته عليها، ويعيشها مسلماً مع أبناء جلدته، ويعيشها بأفقٍ واسعٍ مُدركاً ما طلب منه في حياته وما هو آتٍ بعد مماته.

يرى سيد قطب أنَّ العقيدة أهمُّ ركيزة في بناء التصور الإسلامي الصحيح، وهذه العقيدة متى استقرت في النفس وتملكت جميع شعابها استقرت معها حياة الإنسان، واستقرَّ معها نظام الحياة الذي ترتضيه النفوس المستسلمة للتنظيم والتشريع الرباني، فهي لا تتردد في القبول والرضى بما جاءت من إبطال عادة الجاهلية كلها، وإبطال التشريع والاحتكام لغير هذه الشريعة⁽¹⁶⁴⁾، وهذه العقيدة ليست مجرد حالة نظرية لا علاقة لها في الواقع، بل هي حالة حيَّة متمثلة في سلوك الإنسان وضميره، حاضرة في واقع الحياة وتفصيلاتها، حركة مواجهة مع الجاهلية تبدأ من الضمير والنفس وتنتقل إلى الواقع لتتجسد واقعاً حيّاً⁽¹⁶⁵⁾.

التوحيد هو أول ركيزة تقوم عليها البشرية، وهو أول مساهمٍ محاربة التمييز العنصري، وإنشاء المجتمع المثالي، عبادة الخالق الواحد هذه الفطرة التي تقوم الدنيا عليها، والحقيقة التي جاءت الرسل لأجلها، وهي القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة الصحيحة، وإليها ترجع الفرائض والتكاليف، ومنها تستمدُّ الحقوق والواجبات⁽¹⁶⁶⁾، الإيمان بوحدة الخالق لها مقتضيات وتبعات، أولها التخلي عن عبادة الشجر والحجر، والنجوم والسماء، والتخلي عن الأساطير التافهة، والاعتقادات السخيفة التي انتشرت بين أصنافٍ من البشر وإلى يومنا هذا، التوحيد تخلُّ عن عبادة العباد أصحاب الطبقات الاجتماعية، وعن عبادة العباد الذين يأتون

⁽¹⁶⁴⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 1009).

⁽¹⁶⁵⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 1012).

⁽¹⁶⁶⁾ ينظر: في ظلال القرآن (3/ 1229).

على صورة حاكمٍ أو رئيسٍ أو إقطاعيٍّ أو ملكٍ أو أميرٍ، وتخضع لهذا العبد رقاب العبيد أمثاله، إذ أعظم تحرير يقدمه التوحيد هو عبادة الخالق المستحق للعبادة، وترك عبادة العباد.

وكما يرى سيد قطب أنَّ التوحيد بما يحمله من الإيمان بألوهية الله وحده، والطاعة له وحده، وإفراد العبادة له وحده، وتلقي الشرائع والمناهج منه وحده، هذه المعاني كلها تهدف إلى تقويم حياة البشرية وتصحيحها ظاهراً وباطناً، وهي التي تؤهلها إلى قيادة البشرية جمعاء إلى الطريق المستقيم، الطريق الذي تستقيم معه حياة الأفراد والمجتمعات⁽¹⁶⁷⁾.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1] تردُّ هذه الحقيقة الناس جميعاً إلى أصلهم الواحد، وأنَّ خالقهم واحد، وربه واحد، خلُّقوا من أصلٍ واحدٍ وأُسرةٍ واحدةٍ، ونسبهم جميعاً يعود إلى الإنسانية الواحدة، خاطب الله سبحانه وتعالى عباده بندايتهم أيها الناس، فهذه صفتهم التي ردهم إليها جميعاً، وذكره بأنه خلقهم من نفسٍ واحدةٍ، هذه الحقيقة الفطرية البسيطة، تحمل معاني عميقة جداً، ولو أنَّ الناس آمنوا بهذه الحقيقة وعملوا بها، لكانت كفيلاً بإحداث تغييرٍ كبيرٍ في حياتهم، ولنقلتهم حقيقة الإيمان بالخالق الواحد والأصل الواحد من الجاهلية إلى الإيمان، ومن التمييز إلى العدل، ومن الصراع الجسدي والنفسي إلى الطمأنينة⁽¹⁶⁸⁾.

إنَّ حقيقة أنَّ الناس من أصلٍ واحدٍ أهمُّ علاجٍ للتمييز العنصري، حضور هذه الحقيقة يزيل كلَّ الفروق الحاضرة اليوم في حياة الناس أبناء النفس الواحدة، تزيل كلَّ الفروق التي طغت اليوم على مودة الرحم والصلة، وعلى تقوى الإله الواحد الذي أمر بصيانة هذه الوشيعة، حضور هذه الحقيقة كفيلاً باستبعاد الصراع العنصري الذي ذقت منه البشرية الويلات ولا زالت، تفريق بين الألوان، وبين العناصر، وبين الأنساب، متناسبة النسبة إلى الأصل الأول، والإنسانية الواحدة، وارتباطها بالإله الواحد، استقرار حقيقة الأصل الواحد كفيلاً باستبعاد التمييز الطبقي السائد في الوثنيات الجاهلية والدول الشيوعية⁽¹⁶⁹⁾.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1 - 3]، إنَّ عبادة الله سبحانه وتعالى وحده ترفع الإنسان عن عبودية من سواه، وتقيم في نفسه المساواة

⁽¹⁶⁷⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 1157).

⁽¹⁶⁸⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 573).

⁽¹⁶⁹⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 574).

مع العباد جميعهم، فلا يكون عبداً لأحد، ولا ذليلاً لأحد، هذه الحقيقة تحرر الإنسان وتعطيه الشعور والإيمان الحقيقي بأنه لا معبود سوى الله عز وجل ولا قوة إلا بيده لا بيد أحدٍ غيره، والإنسان لا وجود حقيقي له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد إلى عبادة الله وحده، لينال بذلك المساواة الحقيقية بالخضوع لشرع الخالق لا لشرع المخلوقات⁽¹⁷⁰⁾، وأنَّ الخسران الذي تعيشه البشرية اليوم هو لأنها حادت عن هذا الطريق الذي اختاره الله لهم، تركوا راية الإيمان والعقيدة، وتعلقوا برايات عنصرية لم تثمر خيراً قط في تاريخها، حتى العرب أنفسهم لم يكن لهم شأنٌ في ظل هذه الرايات التي ينتمون إليها، حتى جاءت راية الإسلام التي جمعت الناس جميعاً وأعادتهم إلى عبادة خالقهم، هذه الارية التي انتصر تحتها العرب وقادوا البشرية خير قيادة، إنها راية العقيدة والإيمان بالله تعالى⁽¹⁷¹⁾، أصبح للعرب تحت هذه الارية دورٌ عالميٌّ يؤدونه، وقوة دولية لها وزنها في العالم، وسبب هذا النصر أنَّ المسلمين ترفعوا عن نعة الجنس وعصبية العنصرية، وانتسبوا للإسلام ورفعوا راية الإسلام فقط، وحملوا في صدورهم عقيدة قوية حملوها للبشرية جمعاء، لم يحملوا قومية ولا ب عصبية ولا عنصرية، حملوا رسالةً سماوية لا مذهباً أرضياً⁽¹⁷²⁾.

إنَّ الأصرة التي جمعت المجتمع الإسلامي الأول هي آصرة العقيدة فقط، وهي التي يجب أن تجمع المجتمع المنشود، لا أواصر اللون والجنس والأرض، ولا المصالح والحدود القومية، المجتمع الذي كانت العقيدة هي الحبل الذي يربطه أصبح مجتمعاً مفتوحاً على جميع الأقوام والأجناس والألوان واللغات، من غير عوائق عنصرية، اجتمعت هذه الأصناف جميعها في بوتقة الإسلام، وأنتجت مجتمعاً متماسكاً ومتجانساً أنشأ حضارة شهد لها التاريخ، اجتمع في ظلال العقيدة الإسلامية العربي والفارسي والتركي والصيني والإفريقي وغيرهم، ولم تكن الحضارة يوماً ما حضارةً عربيةً أو تركية، بل حضارةً إسلامية، اجتمع الناس فيها بأصرة الأخوة والمحبة، مؤمنين برهم الواحد، ينتمون للإنسانية الواحدة، أمَّا التجمعات الأخرى من إمبراطوريات ودول فهي تجمعات عنصرية تقوم على أساس سيادة جنسٍ على آخر، أو سيادة طبقة الأشراف على غيرهم⁽¹⁷³⁾.

⁽¹⁷⁰⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 843).

⁽¹⁷¹⁾ ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3968).

⁽¹⁷²⁾ ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3980).

⁽¹⁷³⁾ ينظر: في ظلال القرآن (3/ 1562).

المطلب الثاني: أركان الإيمان ودورها في معالجة العنصرية

إنَّ للإيمان بالله دورٌ كبيرٌ في تحول وتحرير النفس الإنسانية من العبودية لآلهة متعددة إلى عبودية الله وحده، وارتفعت بالإنسان إلى مقام المساواة مع سائر النفوس أمام معبودهم الواحد، الإيمان هو نقطة التحول من التيه إلى القصد، ومن الفوضى إلى النظام، ومن التفكك إلى الوحدة⁽¹⁷⁴⁾.

كذلك الإيمان بالكتاب والنبين جميعاً، هو إيمانٌ بوحدة البشرية، إيمانٌ بوحدة إلهها ومصدر تشريعها، إيمانٌ بوحدة دينها ومنهجها الإلهي، هذا الإيمان الذي يورث يقيناً بوحدة المصدر ووحدة العبادة ووحدة الخلق ووحدة المقصد، فتغيب أمام هذا المشهد الفروقات، وتترسخ الحقيقة بوحدة هذه الرسائل⁽¹⁷⁵⁾، هذه الرسائل التي تدعو البشرية جمعاء أن تنفيء إلى أمر الله، هذه الحقيقة التي تستقيم بها البشرية، وحدة الحق الذي لا يتعدد، إيمانٌ بالكتاب كله، بما أنزل من قبل، وما أنزل على نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمصدر الكتب واحد، ومنهج الله واحد، وسبيله واحد، وليس وراء هذا المنهج إلا الضلال ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾ [يونس: 32]، وماذا بعد سبيل الله إلا سبيل البشر أصحاب الأهواء⁽¹⁷⁶⁾.

إنَّ الإيمان باليوم الآخر هو إيمانٌ بالعدالة الإلهية المطلقة، بعدالة الحساب والقضاء، وعدالة الأجر والجزاء، يعدُّ الإيمان باليوم الآخر جزءاً أساسياً في تصور المسلم، لأنَّه يؤثر بشكلٍ مباشرٍ على تصوراتهِ في الحياة الدنيا وعلى تصرفاته فيها، الاعتقاد باليوم الآخر يدفع نحو العمل والإحسان في هذه الدنيا، ويحضُّ على التزام الشرع واتباع الأمر، وينهى عن البغي والظلم والاعتداء، لا يمكن لأيِّ مجتمعٍ يريد معالجة الأمراض العنصرية أن يخلو من الإيمان باليوم الآخر، هذا الإيمان هو الذي يصوغ العلاقة بين أبناء هذا المجتمع، فليست هي الحياة الآنية فحسب، وليس وراءها حساب أو عقاب، بل لا بدَّ من كمال التصور العقدي في المجتمع حتى تكون جميع أركان الإيمان عاملةً في صياغة المجتمع المنشود.

تصوغ العقيدة الإسلامية العلاقة بين العبد وربِّه، بين الخالق والمخلوق، فهذه العلاقة تقوم بغير وساطة أمام العبيد، يناجي العبد ربَّه ليس بينه وبين دعاء مولاه أي حجاب، وهو وبقيّة الناس سواء في هذه الصلة أمام الله عز وجل، الكل مملوك له وهو مالكٌ لهم سبحانه وتعالى، والكل مخلوقات وهو خالقهم، لا قرْبى لأحدٍ ولا صلة، ولا بنوة كلهم سواء، قال سبحانه: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ

⁽¹⁷⁴⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159).

⁽¹⁷⁵⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159).

⁽¹⁷⁶⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 778).

الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿النساء:

[172]، فالكل عبيدٌ لربٍّ واحد، والكلُّ سواءٌ أمامه، بالناسِ جميعاً بموقفٍ واحدٍ أمام صاحب السلطان، ولا سبيل إلى القرب منه إلا بالتقوى والعمل الصالح، وبهذه المساواة تسقط كلُّ الدعاوى الزائفة في الوساطة بين الله والناس، وتسقط كل الدعاوى التي يدعيها أفرادٌ وجماعات بنسبٍ أو علاقةٍ بينهم وبين الله عزَّ وجل غير هذه العلاقة الأصلية المتجذرة في حياة الإنسان، فهذه العقيدة التي يستقر فيها القلب، ويقوم عليها نظام الحياة⁽¹⁷⁷⁾، "الإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق، فكلُّ مسلمٍ في أطراف الأرض وفي فجاج البحر يستطيع بمفرده أن يتصل بربه، بلا كاهن أو قسيس"⁽¹⁷⁸⁾.

وهذه المساواة هي ركيزةٌ أساسية في معالجة العنصرية وآثارها، فلا نسب بين الله وبين أحدٍ من خلقه، لا لأفرادٍ ولا لجماعات، كذلك كان منهج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تربية الصحابة، فلم يرض لأحدٍ أن يشفع في حدٍّ من حدود الله ولو كان أقرب الناس له، وجاءت الآيات صريحةً في ذمِّ عدوِّ الإسلام وهو عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذاً فالعقيدة الإسلامية تعطي المجتمع تصوراً واضحاً عن منهج الحياة، وتمنع وجود جماعات متفوقة على غيرها معتمدةً على ادِّعاءٍ تفضيل الخالق لها، فلا يوجد في الإسلام إلا مقام العبودية الذي يتساوى فيه جميع الناس، ومقام الألوهية للخالق سبحانه وتعالى.

قام المجتمع الإسلام الأول على المنهج الذي أراد الله عزَّ وجل، فتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت الأرواح والقلوب، دون أن يكون للعقوبات والحدود دور كبير، فالرقابة الذاتية التي قامت في الضمائر قطعت الطمع عمّا حرَّم الله خوفاً من عقابه وحياءً منه سبحانه، هذا الخوف والحياء قام مقام الرقابة ومقام العقوبة، وارتفعت هذه التصورات بالمجتمع إلى القمة السامقة بفضل تعاليم الإسلام وعقيدته، قامت العقيدة في النفوس والضمائر مانعةً من ارتكاب ما لا يرضي الله⁽¹⁷⁹⁾، هذه الرقابة لها دور كبير في معالجة أي انحرافات قد تظهر في المجتمع، فالإنسان لا يمارس أي تمييزٍ عنصري، أو أي تكبرٍ على أبناء جنسه لأنَّه يعلم حقيقة اطلاع الله عزَّ وجل على أعماله، وأنَّ لكل تصرفٍ من تصرفاته حسابٌ.

تتكامل أركان الإيمان لتصوغ الشخصية الإسلامية للفرد المسلم، فهو يعلم أنَّ لهذا الكون خالق ومعبود واحد، فيأتي التوحيد أول ركنٍ في هذا التصور الإسلامي، التوحيد الذي يحرر الإنسان حريةً حقيقية، لأنَّه ينتسب بالعبادة للخالق الحقيقي المستحق

(177) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 819).

(178) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص: (14).

(179) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 1008).

لهذه العبادة، ومن ثمَّ يؤمن أنَّه عبدٌ مخلوقٌ لغايةٍ وحقيقةٍ واحدة، وأنَّه والناس جميعاً مخلوقون من نفسٍ واحدة، وأنهم سواء متساوون أمام خالقهم، فأصلهم واحد ونسبهم واحد، كذلك شريعتهم واحدة، فالأنبياء جميعاً جاؤوا برسالةٍ واحدة، رسالة الإسلام والتوحيد، فالخالق واحد، والعبيد من أصلٍ واحد، والدعوة جاءت إلى رسالةٍ واحدة، ومن ثمَّ يأتي الإيمان باليوم الآخر واليقين باطلاع الله عزَّ وجلَّ على أعمال خلقه كرادعٍ لأي تجاوز يأتي من غفلةٍ أو هوى.

إنَّ العلاقة بين الله عزَّ وجلَّ وبين عباده تقوم على أنَّه خالقهم وأنهم عبيده، والمعيار الوحيد للتفاضل بين هؤلاء العباد هو معيار التقوى والعمل الصالح، وهذا المعيار لا يقوم على أساس تميز فئةٍ على أخرى، ولا فردٍ على آخر لاعتبارات لا أساس لها من لونٍ أو جنسٍ أو لغة، الجميع متساوٍ من حيث الأصل أمام الله عزَّ وجلَّ، والكل يسعى إليه في ميدان العبودية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] هذه القيمة الإسلامية التي تحطم كل المعايير الجاهلية، وكل الطبقات العنصرية، وكل التمييزات والفروق المصطنعة، لتكون هذه القيمة ميزاناً ربانياً خالياً من شائبة الهوى والتحيز، إنَّ هذا التنوع في الألسنة والألوان، وهذا الاختلاف في الطباع والأخلاق، وهذه الفروق في المواهب والاستعدادات لا تقتضي النزاع والشقاق، بل تقتضي التعاون للنهوض بتكاليف الحياة وواجب العمارة، وليس لهذه الألوان والأجناس واللغات حسابٌ في ميزان الله تعالى، إنما هو ميزانٌ واحدٌ تتحدد به المنازل ويتفاضل به الناس، إنه ميزان التقوى الذي تسقط عنده جميع الفوارق والقيم، وتتوارى خلفه جميع أسباب النزاعات والخصومات في الأرض، وتسقط جميع القيم التي يتنازع عليها الناس اليوم، إلى هذا الميزان يرجع اختلاف البشر وإلى هذا الميزان يتحاكمون، هذا لواء التقوى الذي جاء به الإسلام لينقذ البشرية من ضلال العصبية للجنس والعصبية للقبيلة والعصبية للأرض أو للوطن أو القوم، هذه كلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام⁽¹⁸⁰⁾.

(180) ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3348).

المبحث الثاني: التشريع الإسلامي ودوره في معالجة العنصرية

أكرم الله تعالى البشرية جمعاء بأن بعث فيهم خاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأوحى إليه بشريعة غراء فيها نجاتهم وسعادتهم، وحيّ إلهي من القرآن والسنة فيهما هدى للناس ورحمة، شريعة ربانية من عند أحكم الحاكمين الذي يعلم السر وأخفى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، شريعة عامة للناس أجمعين ليست خاصة بقوم أو جنس، صالحة لكل زمان ومكان، تقوم على السماحة والتيسير، وفيها العدل المطلق والحق المطلق والخير المطلق، والذي فيه مصلحة البشرية وصلاحها، فهي من عند رب العالمين الذي هو أعلم بخلقه وبما يصلحهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

لقد حوى التشريع الإسلامي أحكاماً عظيمة نقلت المجتمع الإسلامي من ظلام التشريعات البشرية إلى نور التشريعات الربانية، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام، أراد الإسلام أن يستخلص القلوب عن التعلق بغير الله، وأن يخلصها من كل الرواسب أو النعرات العنصرية، وأن يجعل صلتها بالله وحده، وذلك باتباع الوحي والتجرد للحق، وأن تكون النفوس راضية مستسلمة لحكم الله وحكم رسوله، ليس بالنية فحسب، بل بالعمل أيضاً، توجه لله بكل حركة أو مكان أو دعاء أو نحر أو طعام وشراب⁽¹⁸¹⁾.

وقد كان للتشريع الإسلامي دور في معالجة العنصرية من خلال مجالات مختلفة، فنرى في باب العبادات أحكاماً تأخذ دوراً فاعلاً في تخليص المجتمع المسلم من أي ظاهرة عنصرية، كذلك في باب المعاملات والأخلاق.

(181) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 126).

المطلب الأول: العبادات ودورها في معالجة العنصرية

يرتفع الإنسان بعبادة الله وحده إلى مقامٍ عظيم، يرتفع إلى مقام العبودية، ويرتفع إلى مقام المساواة مع جميع العباد، فالعباد سواءٌ أمام خالقهم ومعبودهم، لا يحني الإنسان رأسه لغير الواحد القهار، ومن هنا تأتي حرية الإنسان الحقيقية، ومن هنا تأتي التصورات الصحيحة للوجود الإنساني، فيحمل الإنسان عندئذٍ راية الإسلام والعقيدة، لا راية القومية أو العصبية، رايةً ورسالةً سماويةً يحملها المسلم للعالم أجمع⁽¹⁸²⁾.

يرى سيد رحمه الله أنَّ للعبادات الجماعية دوراً في المساواة بين الناس جميعاً، وفي التغلب على جميع الرايات والدوافع العنصرية، لتسود عوضاً عنها راية الإسلام وشرعية الرحمن، وليحلَّ التشريع الإسلامي محلَّ الاعتقادات الفاسدة السابقة.

أولاً: الصلاة:

إنَّ أعظم عبادةٍ في الإسلام وهي الصلاة، تُعبّر بوضوح عن دور العبادة في معالجة المظاهر العنصرية، فهذه العبادة ترتفع بها النفس إلى مقام المساواة مع سائر النفوس، مساواة في الصفِّ الواحد، ومساواة أمام المعبود الواحد، فيها تظهر المساواة بين العباد في الركوع والسجود، لا يرتفع رأس على رأس، ولا تتقدم قدمٌ على قدم، فكانت الصلاة نقطة التحول من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد، ومن التفكك إلى الوحدة⁽¹⁸³⁾.

ولما أراد الإسلام أن يجعل القلوب خالصةً لله سبحانه، وأراد تجريدتها من التعلق بغيره، وأن يخلصها من كل نعةٍ عصبية، جاء الأمر أولاً بنزع القبلة من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، ليخلص النفوس من رواسب الجاهلية، وليمتحن القلوب المستسلمة لأمر الله، ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: 143] فينقلب على عقبيه كلُّ معتزٍ بأمر الجاهلية، وكلُّ متعلق بجنس أو قوم أو أرض، لكنَّ النفوس المسلمة تستسلم لأمر الله قولاً وعملاً⁽¹⁸⁴⁾.

تغيرت القبلة أولاً لكيلا يبقى لقرشي شيءٌ من أمر الجاهلية، ولكيلا يعتقد أهل مكة لأنفسهم مكانةً دون غيرهم، واختباراً للتسليم لأمر الله، فكانت القبلة الأولى نحو بيت المقدس، لا نحو ما يعرفه أهل مكة والمدينة من التوجه نحو مكانٍ يعرفونه، وأرضٍ يعتادونها، لينزع من نفوسهم التمسك بأرضٍ لهم دون بقية الأماكن، ولكيلا يكون لأهل مكانٍ ميزة على غيرهم،

⁽¹⁸²⁾ ينظر: في ظلال القرآن (6/ 3965)، (6/ 3980).

⁽¹⁸³⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159)، (5/ 3165).

⁽¹⁸⁴⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 126).

فيتعصبوا لها ويتمسكوا بها، ولما انصاعت النفوس لهذه الحكمة، وانقادت الناس نحو أمر ربها، جاء الأمر أخيراً بتحويل القبلة نحو مكة.

نعم كانت الصلاة عبادةً فارقة في تهذيب النفوس المسلمة، فقد ساوت بين العباد أمام المعبود الواحد، وجمعت بينهم في مسجد واحد، ورصّت صفوفهم في خطٍّ واحد، وصححت بوصلتهم لاتجاهٍ واحدٍ وقبلّةٍ واحدة، كذلك لم يكن إمام المصلين أبيضاً أو أسود، ولا ابن الطبقات الغنية ولا من الأنساب الرفيعة، بل للقارئ والمتقن، معيارٌ متجردٌ من الأبعاد العنصرية، وصفوفٌ لا تميز بين العباد أمام معبودهم.

ويرى الباحث أنّ الصلاة عبادةً ساهمت في صياغة المجتمع المسلم الخالي من التميزات العصبية أو العنصرية، ووحدت هذه الأمة في صورة من الأقوال والأفعال، وجردتهم من كل الألقاب، تذكيراً لهم بالحقيقة الكبرى، وهي أنّ البشر جميعاً عبادٌ متساوون أمام خالقهم.

ثانياً: الحج:

عبادة الحج مظهرٌ إسلامي عظيم، ومشهدٌ من مشاهد المساواة العظيمة، مشهدٌ للتجرد من كلّ دعوى إلا دعوى الإسلام، ومن كل نسبٍ إلا نسب الإيمان، ومن كل ثوبٍ إلا ثوب التقوى، لا يتميز فرد عن فرد، ولا جنس عن جنس، عقدة الإسلام هي وحدها الجامعة، ونسب الإسلام وحده النسب، فغابت في هذا المشهد العظيم كلّ الفوارق التي صنعها البشر ووضعتها النفوس المأزومة⁽¹⁸⁵⁾.

يرى المؤلف أنّ الحجّ هو المؤتمر الإسلامي الجامع، فيأتي خطاب الله تعالى لعباده بوضوحٍ مقررٍ قاعدة خالدة وهي عدم التمييز بين العباد فيقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199] من حيث أفاض الناس، فالجميع سواء أمام المعبود الواحد، في يوم الحجّ الأكبر يتساوى الناس في كلّ شيء، في لباس الإحرام، وفي أداء العبادة، وفي الزمان، وفي المكان، متساوون في كلّ شيء، ومتجردون من كلّ شيء، من ألقابهم وأنسابهم وقومياتهم، أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، رجالهم ونسائهم، كلهم يلهجون بالدعاء لإلهٍ واحدٍ.

(185) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 199).

إذا تأتي فريضة الحج أيضاً لتكون مشهداً وعبادةً تساهم في معالجة الفرقة العنصرية بين البشر، فهي توحدهم أولاً في الزمان الذي حدده الخالق المستحق للعبادة، وتوحدهم في المكان الذي شرع لهم من عند خالقهم لا على أساسٍ مناطقي ولا قومي، بل في مكانٍ وجهةٍ وقبله ارتضاها الله عزَّ وجلَّ لهم، وتوحدهم فريضة الحج في اللباس حيث يتجرد الجميع من ألقابهم وملابسهم ليرتدوا ثياب الإحرام ويقفون ملبين لربهم، موقف بين العبد والمعبود، الكل في هذا المشهد عبيدٌ لله سبحانه وتعالى، وتوحدهم في الموقف حيث يفيض الملوك من حيث أفاض الناس، ويفيض الأبيض من حيث أفاض الأسود لا فرق ولا تمييز.

يبدو للباحث أنَّ العبادات الجماعية لها مقصدٌ واضح وهو استواء الناس كلهم أمام الله سبحانه وتعالى، وهذا واضحٌ في عبادتين خصوصاً، صلاة الجماعة والحج، حيث يجتمع أصنافٌ من الناس مختلفون، جمعت بينهم فريضة من الفرائض لا نافلة، فالعبادات الجماعية تساهم في صياغة مجتمعٍ خالٍ من التفرقة العنصرية والتمييز.

ثالثاً: الزكاة:

تظهر قيمة إنفاق المال أولاً في الانعتاق من عادة الشحِّ والأثرة، ومن قبض اليد عن البذل، فيتحرر الإنسان بذلك من عبودية المال، ويتحرر من الحرص الذي يأسر الإنسان عن معالي الأمور، الإنفاق قيمة كبرى في ميزان الإسلام، لأنَّه يحرر الإنسان من ضعف نفسه وحرصها، وهو قيمة إنسانية واجتماعية عظيمة، تتحقق فيها مروة النفس بالإنفاق، وقيمة التكافل في المجتمع، تكافلاً بين القوي والضعيف، والفقير والغني، وكفالة لليتامى الذين فقدوا رعاية الأبوين، وإعانة للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون، ولابن السبيل الذي انقطع عن أهله وماله، وهي إشعارٌ لكل هؤلاء بالتكافل والتضامن في محيط الجماعة المسلمة، إشعارهم بأنَّ الإنسانية كلها لهم أهل، والأرض كلها لهم وطن⁽¹⁸⁶⁾.

والنفوس في هذا الإنفاق سليمة ساكنة، فالمعطي يفعل ما أوجبه الله عليه، يتعد فيه عن مظنة الرياء والعجب، ويقصد بهذه النفقة تطهير نفسه من الشح، وتطهير ماله بإخراج حقِّ الله فيها، وصلة إخوانه وأهله الذين وجب عليه صلتهم من ماله، والآخذ يشعر بفضل الله عليه، وتتعزيز صلته بمجتمعه حين يجد من ينفق عليه من أهل قرابته ورحمه،

ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من إخوانهم الأغنياء، فالإنفاق يربط بين الطرفين، يربط بين المجتمعات، فالمنفق والآخذ بينهما

(186) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 159).

رابطة الرحم، أو رابطة الرحمة، أو رابطة الإنسانية الكبرى، كما قال تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215] كل هؤلاء يتضامنون في رابطة التكافل الاجتماعي، هذه الرابطة الوثيقة بين بني الإنسان⁽¹⁸⁷⁾.

يرى صاحب الظلال أنَّ التكافل هو قاعدة رئيسة في المجتمع الإسلامي، فيه توثيق الصلة بين أبناء المجتمع الواحد، وفيه سدُّ حاجة أبنائه الفقراء، تذكُّرهم هذه القيمة العظيمة بوحدة هذه الأمة، وحدة حياته، ووحدة اتجاهها، ووحدة تكاليفها، ليست تطوعاً ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم، بل فريضة واجبة، وقدرها معلوم، الزكاة فريضة في الإسلام تؤدي خدمة اجتماعية محددة⁽¹⁸⁸⁾.

يرى الباحث أنَّ الزكاة والصدقة وسيلتان عظيمتان للحفاظ على ترابط المجتمع المسلم، ولهما أثر كبير في معالجة التمييز القائم على أبعادٍ عنصرية أو طبقية أو قومية، فالأغنياء في المجتمع المسلم مكلفون برعاية مصالح الفقراء، وهو من أهم الوسائل العلاجية التي تغيب عن البشرية، المنفق يفعل ما يجب عليه من بذل حقِّ الله في ماله، ويتباعد عن مظانِّ الرياء، ويعطي هذا المال عن طيبِ نفسٍ راجياً من الله القبول، والآخذ لا يجِدُ حرجاً في أن يأخذ ما لا منة فيه ولا ذل.

المطلب الثاني: المعاملات ودورها في معالجة العنصرية

لم تأتِ الشريعة الإسلامية للوعظ والإرشاد فحسب، بل جاءت لترسم للبشرية طريق سعادتهم ونجاتهم، أعطت أصحاب الحقوق حقوقهم، وصانت لجميع الناس كرامتهم، وأنشأت روابط متينة داخل المجتمع المسلم، ووحدت الأمة الإسلامية من مشرقها لمغربها، بعربها وعجمها، ووضعت معايير التعامل مع بقية الأمم غير المسلمة، وعلى ماذا تقوم هذه المعاملة من قواعد وقيم. يأتي في باب المعاملات في التشريع الإسلام صورٌ شتى من الأحكام التي تساهم في إرساء العدل والمساواة بين بني الإنسان، كإعطاء الحقوق، ومنع الاعتداء، وحقِّ الملكية، وعتق الرقاب، وكفارة اليمين، وتوزيع التركة، ومنع الاحتكار وغيرها... كلُّ هذه صورٌ من التشريعات الإسلامية التي ترسي العدل في المجتمع، وتمنع التحيزات والأحكام التي تقوم على أسسٍ عنصرية.

(187) ينظر: في ظلال القرآن (1/ 221)، (5/ 2627).

(188) في ظلال القرآن (1/ 232)، (1/ 307)، (3/ 1668).

نقف عند قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 25]، لنرى طبيعة العلاقة الإنسانية بين الأحرار والرقائق داخل المجتمع المسلم، يرى المؤلف أن الإسلام بداية لا يفرق بين الأحرار وغيرهم تفرقة على أساس عنصري من حيث الأصل الإنساني كما هي المجتمعات العنصرية، إنما يعاملهم على أساس الأصل الإنساني الواحد مهما كانت الاختلافات الأخرى، ويضيف لهذه الرابط الإنسانية رابط الإيمان والعقيدة بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، ولا يسمي أصحاب الملك سادة بل يسمهم أهلاً ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، ولا يجعل الإسلام المهر لسيد الفتاة، بل مهرها حق لها، ويكرمهن بوصف العفة والإحصان، وذلك غاية التكرم الإنساني، رغم ما هم فيه من وضع اجتماعي اقتضته الأوضاع آنذاك، إلا أن ذلك لا يلغي أصل الكرامة والإنسانية⁽¹⁸⁹⁾.

وفي نفس السياق يأتي الإسلام ليضع لكل شيء حداً، فإذا وقعت إحدى الإماء بشيء من الذنب ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: 25]، فيراعي الحد اعتبارات الواقع من غير إفراط ولا تفريط، فيجعل حداً نصف الحد قبل الإحصان، فلا هو يعفيها من العقوبة لاعتبار واقعها، ولا يغفل خصوصية وضعها الذي يغير الحرّة، كما أنه لا يتشدد معها كونها ضعيفة الجانب⁽¹⁹⁰⁾.

إنّ التشريع الإسلامي يساوي من حيث المبدأ بين الذكر والأنثى، ويكفل للأنثى حقوقها واستقلالها المادي والمعنوي، ويمنع الاعتداء على كرامتها أو حقوقها، ولم يجعل التفاضل إلا في بعض المسائل المتعلقة بالاستعداد والدربة، وأينما تساوت طبيعة الجنسين تساوى التشريع، وحيثما حضر الاختلاف والتفاوت كان التفاوت في الأحكام والتشريعات بحسبه.

يتساوى الذكر والأنثى في الجزاء والحساب أمام خالقهم، وفي العبادات والمعاملات، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124]، فليس الثواب والعقاب بناءً على جنس أو نوع، بل بناءً على عمل واجتهاد، كلٌّ يُجزى بحسب ما قدّم لنفسه، وحارب الإسلام فكرة أن المرأة عارٌ وعالة على أهلها، فمنع الوأد وحاربه، وهي عادة تعرفها الجاهلية، وكذلك قتل أي ولدٍ خوف الفقر.

⁽¹⁸⁹⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 628).

⁽¹⁹⁰⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 629).

ويتساوى الذكر والأنثى في ناحية الاستقلال المادي والأهلية للتصرف والتملك، ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]، وضمن الإسلام للمرأة حقَّ الزواج بإذنها ورضاها من غير غصبٍ أو إكراه قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبَكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ"⁽¹⁹¹⁾ وقال تعالى: ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: 24]، ضمن لها الإسلام هذه الحقوق، ووفر الحماية لها، وصان كرامتها، فلا ينغص حقها أحد، ولا يُعتدى عليها بحجج أو أسباب لا أصل لها⁽¹⁹²⁾، منح الإسلام هذه الحقوق للمرأة بدون ثورات أو انتفاضات، وبدون جمعيات حقوقية أو مطالبات سياسية، أعطاهها الإسلام هذا الحقَّ تكريماً لإنسانيتها ابتداءً، وعدالة بينها وبين الشق الآخر من بني الإنسان، وعملاً على إنشاء نظام اجتماعي يقوم على المودة والمحبة، وحوله سورٌ من التشريعات والضمانات لكل أفرادها، من هنا جاءت المساواة في حق الكسب وحق التملك بين الرجال والنساء من حيث المبدأ العام⁽¹⁹³⁾.

والمجتمع المسلم تكفل فيه كرامة الناس وتضامن فيه حرمة أموالهم ودمائهم، فلا يحقُّ الاعتداء على نفسٍ أو مالٍ، ولا يجوز القتل ولا الاعتداء، فالإسلام لا يفعل فعل أهل الجاهلية الذين إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، بل إنَّ أهم مبدأ تقرره الشريعة في باب الحدود والقصاص هو باب المساواة، المساواة في العقوبة والمساواة في الدماء، وهذا ما لا تعرفه بقية الأمم والشرائع، المساواة بين النفوس الواحدة، النفس بالنفس، والجراحة بالجراحة، مهما اختلفت المقامات والأنساب والطبقات الاجتماعية والأجناس، قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: 45]، النفس بنفس مثلها، والعين كذلك، والجروح قصاص، بدون تمييز أو عنصرية، لا حاكم ولا محكوم، ولا ضعاف ولا أشراف، كلهم من نفسٍ واحدة وأصل واحد⁽¹⁹⁴⁾.

⁽¹⁹¹⁾ صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها، رقم الحديث: (5136)، صحيح

مسلم، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت، رقم الحديث: (1419).

⁽¹⁹²⁾ ينظر: قطب، سيد، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، 1415هـ، 1995م، الطبعة: بدون، ص 47-49.

⁽¹⁹³⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 645).

⁽¹⁹⁴⁾ ينظر: في ظلال القرآن (2/ 898).

إنَّ العدالة في التشريع الإسلامي هي أبرز سمة تساهم في تحقيق الاستقرار المجتمعي، وتعالج المظاهر العنصرية والتحيزات الطبقية، هذه العدالة الإلهية التي لا تخضع لأهواء البشر، فالحاكم والمحكوم فيها خاضع لشرع الله عزَّ وجلَّ، فيقف الجميع سواء أمام شريعة رب العالمين في طمأنينة وتسليم، وهذا التشريع الإلهي قد كفل حقوق الناس وسأوى بين المتحاكمين إليه⁽¹⁹⁵⁾.

إنَّ سمات التشريع الرباني تساهم في سعادة البشرية جمعاء، فهذه الشريعة التي تراعي طبائع البشر وأحوالهم، وتشرع الأحكام التي تتناسب مع الواقع المعاش، وتساوي بين الناس جميعاً أمام معبودهم، وتساوي بينهم في الأحكام والحدود، وتوجب ما يراعي الفروقات بينهم، فتوجب على الغني الإنفاق والبذل، وتوجب على القوي الجهاد والنصر، وتأمّر الفقير بالسعي والعمل، وتضبط الجميع بضابط التقوى ومراقبة الله سبحانه، فيجتمع السلوك العملي والرقابة الذاتية؛ لينتج مجتمعاً متماسكاً خالياً من التحيزات ومما يدعو للفرقة.

والذي يريد أن يدرك عمق هذه المعاني الإسلامية، لينظر إلى الحضارة المعاصرة، فهي مازالت تمارس هذه التفرقة العنصرية، فيحقُّ للأشراف البيض ما لا يحقُّ للضعفاء من السود وغيرهم، وتسبِّ القوانين بناءً على تحيزات عنصرية، وتهان المرأة وتستخدم كسلعة في كثيرٍ من البلاد، ويعامل بعنصرية كلُّ غريبٍ عن بلدٍ أو قطر سوى أنَّه لا يملك جنسية هذا البلد أو لا ينتسب لأهله، تفرقة وتحيزٌ عنصري لا أصل له في الشرع ولا العقل.

المطلب الثالث: العدالة الاجتماعية والمساواة ودورها في معالجة العنصرية

إنَّ تمكن العقيدة الإسلامية في النفوس، والتسليم للتشريع الإسلامي في القلوب، هو الذي يشكل المجتمع الإسلامي السليم الذي يحمل التصورات الصحيحة للحياة والكون، "وإنَّ طبيعة نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية تجعل العدالة الاجتماعية عدالةً إنسانيةً شاملةً لكلِّ مقومات الحياة الإنسانية"⁽¹⁹⁶⁾.

إنَّ النظام الإسلامي نظامٌ متكاملٌ الأركان والأسس، واضح الغايات والأهداف، ينطلق من الإيمان بوحدة الخالق سبحانه وتعالى، ويملك بوضوح تصوراتٍ كاملةٍ عن مبدأ البشرية ومنتهائها، وعن غاية وجودها وما طلب منها، نظامٌ إسلامي متكاملٌ ومتوازن، فيه تصورات كاملة عن الدنيا والآخرة، وعن الروح والجسد، وعن الفرد والجماعة، وعن عالم الغيب وعالم الشهادة،

⁽¹⁹⁵⁾ ينظر: في ظلال القرآن (1/ 210).

⁽¹⁹⁶⁾ قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص: (31).

هذا النظام بتكامله يُشكل المنهج الرباني الذي ارتضاه الله عزَّ وجلَّ للبشرية، والذي تعجز العقول البشرية عن إدراك غاياته وأبعاده، وتعجز عن استبداله بتشريعات أرضية بشرية، وإن فعلت فسيعود عليها بالوبال والخسران.

وتأخذ العدالة الاجتماعية ركناً أساسياً في النظام الإسلامي، فهي ركيزة تضمن الاستقرار والعدل، وتحفظ استمرار الأمم والمجتمعات، وهذه العدالة الاجتماعية تتميز بكون مرجعيتها مرجعيةً ربانية، وهي منبثقة من النظام الإسلامي الذي تكلمنا عن تكامله، وتحقق العدالة الاجتماعية أولاً في النفوس المؤمنة الحاملة للعقيدة الصحيحة، هذه النفوس التي تتحمل تكاليف التشريع، هذه النفوس التي تحررت أولاً من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وتحررت من الخضوع لأي سلطان، وعلمت أنَّ النفع والضرر والخير والشر بيد الله سبحانه وتعالى، وعلمت أنَّ العلاقة بين العباد وبين المعبود علاقة مباشرة بلا واسطة أو حاجز.

وبعد أن تمتلأ النفوس بالخضوع لله سبحانه وتعالى، تتحرر من كلِّ خضوعٍ لغيره، ومن كلِّ تبعيةٍ لمخلوق أو سلطان، ومن كلِّ احتكامٍ إلى منهجٍ غير منهجه، لأنَّه يعلم أنَّ الخلق عباد الله، وأنَّ الرزق بيد الله، وأنَّ الحياة والموت مقدران بتقدير الله، ويعلم أنَّه لا يضر ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى، بهذا كله يمتلك الإنسان حريته وسعادته، ويعلم أنَّ المناهج البشرية خروج عن مراد الله عزَّ وجلَّ، ويعلم أنَّ الطبقة والتمييز التي اصطنعها البشر لا أصل لها، وأنَّه ينبغي ألا يخاف البشر من البشر، ولا يستعبد الإنسان أبناء جنسه، بل بالعبودية لله وحده تتحقق مساواة الجميع أمام الخالق، لأنَّهم علموا جميعاً أنَّ الجميع سواء أمامه، والقرب منه والعلاقة معه قائمة على معيار عادلٍ ورباني، معيار التقوى والعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13] (197).

المساواة الإنسانية: يرى سيد قطب أنَّ المساواة الإنسانية هي من أهمِّ الأسس في إقامة العدل الاجتماعي في الإسلام، فالمساواة انطلقت من لحظة الإيمان بالله وحده وترك عبادة غيره، المساواة بدأت عملياً حين استشعرت النفوس التحرر الوجداني من العبودية لغير الله، وحين تأكد الضمير البشري من حقيقة الكون واستشعر في أعماقه غاية الحياة، عندئذٍ كانت المساواة نابعة من النفوس والعقول قبل التشريعات والتنظيمات، وكان الجميع حريصاً على تقرير المساواة واقعياً عملياً لا حالةً نظرية، الفقير والغني والضعيف والقوي وكلُّ صنفٍ من البشر يدرك الحقيقة الكونية التي أرادها الله عزَّ وجلَّ في جعل الناس مختلفين، فالكون موجود بإرادة واحدة، والخلق جزءٌ متناسق مع هذا الكون، وجميع البشر خلايا متناسقة مع الكون، فالتصور الإسلامي يقوم على أنَّ الإنسانية جزء واحد، وإنما تفترق أجزاؤها لتجتمع، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]، وجعل الاختلاف يراؤ به الاتساق، وتعددت الطرق ليحصل التعاون، وهذا التعاون لا يستقيم به نظام الحياة الإنسانية حتى يكون وفق منهج الله وشرعه (198).

يلاحظ الباحث أنَّ سيد قطب رحمه الله ينطلق دوماً في تقرير مبدأ المساواة الإنسانية من نقطة التوحيد، فالتوحيد هو المبدأ الأول والحقيقة الكبرى، ومن هذه الحقيقة تأتي المناهج وإليها تعود الأحكام، فالتوحيد هو العلاج الأول لكلِّ المعضلات التي

(197) ينظر: العدالة الاجتماعية في الإسلامي، ص: (38).

(198) ينظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص: (23).

تعاني منها البشرية، فالإيمان بصدور هذا الكون عن إرادة واحدة كفيلاً بأن يلغي كل الاعتبارات البشرية الأخرى، يلغي تسلط العباد على رقاب العباد، ويلغي الفروق المصطنعة التي وضعها البشر، ويلغي الادعاءات بأنّ بين أحدٍ من الناس وبين الله نسباً، ويلغي ذل النفوس وانقيادها لمن هو فوقها من صاحب سلطان أو جاه، أو من هو فوقها بالمال أو القوة، والتوحيد كذلك يخضع له القوي بقوته فلا يتجبر، والغني بماله فلا يطغى ولا يفسد، الكلّ منقادٌ للواحد الأحد، والكلّ سواءٌ أمامه.

ويرى الباحث أيضاً أن سيد قطب ينطلق ثانياً في تقرير مبدأ المساواة الإنسانية من نقطة وحدة الأصل الإنساني، فالخلق جميعاً يصدر عن إرادة واحدة، وينتسبون لأصل واحد، وخلقوا من نفس واحدة، وهو ركنٌ أساسٌ في نبذ أي تفرقة عنصرية بين البشر، فلماذا يتفاخر الإنسان على الإنسان، وهو قد خلق من نفس الأصل، فتحققت المساواة عند اللحظة الأولى، وتساوت النفوس من حيث المنشأ والمبدأ، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1] وهذه الحقيقة الثانية كفيلة بمعالجة التمييز العنصري، وحجر أساس في تقرير المساواة الإنسانية.

وهو سبحانه الذي أراد بالتقاء شطري النفس الواحدة الذكر والأنثى، والرجل والمرأة، والزوج والزوجة، أراد أن يكون لقاء النفس بالنفس، والشرط بما يكمله، وبهما تستمر الحياة ويمتدُّ النسل في سكونية وطمأنينة، وتساوت شطري النفس الواحدة في موقفها من الله سبحانه وتعالى، فشملهما التكريم الإلهي، شمل الرجل والمرأة، وتساوى الشطران في الأجر والثواب عند الله، كما تساوى في الدنيا في الحقوق والواجبات من حقِّ التملك والإرث، واستقلال الشخصية المدنية، وهذا الشطران هما اللذان ينشئان مؤسسة الأسرة المطمئنة، والتي يحصل فيها الستر والإحصان، ويعيش أفرادها وفي أجواء الفطرة السليمة والأخلاق الحميدة، فهذه هي مؤسسة الأسرة العظيمة، التي قامت بين شطري النفس الإنسانية الواحدة، والتي أعطاهها الإسلام قيمةً عظمى، ووضع لها منهجاً ووظيفةً راقية، (199).

كما تتجلى المساواة الإنسانية في العلاقة بين الخالق والمخلوقات، في العلاقة بين المالك والمملوك، وفي العلاقة بين البشر وربه سبحانه وتعالى، فلا قرابة ولا صلة لأحدٍ من البشر إلا بشيء يملكه الجميع، ويستطيع الجميع بلوغه وهو التقوى والعمل الصالح، فموقف الجميع من صاحب السلطان واحد، عند هذه النقطة تكون المساواة الحقيقية بين بني الإنسان، لأنهم متساوون جميعاً في موقفهم من صاحب السلطان، عند هذه الحقيقة تسقط كلُّ الدعاوى الزائفة في الوساطة بين الله وبين الناس، وتسقط كلُّ الفروق المدعاة للأفراد والجماعات بتمييزهم أو انفرادهم بشيء خصَّهم الله تعالى به، وبدون هذه الحقيقة لا تكون هناك مساواة حقيقية بين بني الإنسان (200).

وهذه المبادئ التي تقوم عليها المساواة الإنسانية لا تتحقق إلا بأن تكون حياته كما أمر الله، وأن تكون شريعته من صنع الله، وأن يكون الأمر تحت سلطان الله لا سلطان أحد من البشر، فاتباع الإنسان للمنهج الذي أراده الله هو الذي يجعله إنساناً كاملاً إنسانية، حيث تصوغ التصورات الإسلامية عقيدة الإنسان في الله والملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر، فتخرجه

(199) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 649).

(200) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 819).

من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المشهود والمحسوس، ليدرك تصوراً كاملاً عن عالم الغيب وعالم الشهادة، وعن عالم المادة وما وراء المادة، ويخرج بذلك من التصور الحيواني المحدود، إلى التصور الإنساني المنشود، فالعبودية متوجهة لله وحده، ويتلقى الشريعة والنظام منه وحده، ويتوكل ويعتمد عليه وحده، ويتحرر من كلٍّ من عداه من المخلوقات، ليكون في صفٍّ واحدٍ مع العبيد أمام الله وحده⁽²⁰¹⁾.

وتتجلى المساواة الإنسانية في الأحكام الشرعية والقوانين التنظيمية، حيث نرى أنَّ المساواة حاضرة في باب الحقوق والواجبات، وفي باب العبادة والمعاملات، وفي باب العقوبة والقصاص، وفي ظلِّ هذا التشريع يتعم الإنسان بحقِّ المساواة في التحاكم إلى قضاء واحدٍ وشريعةٍ واحدة على أساسٍ واحد⁽²⁰²⁾، فقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القانون والقضاء، في الوقف الذي كانت تعاني البشرية من تفرق الناس إلى طبقات، وجعلت لكلِّ طبقةٍ قانوناً، فهذه الشريعة هي رحمة للبشرية جمعاء، سواء منهم المسلم وغير المسلم، فالبشرية كلها متأثرة بهذه الشريعة الربانية، وهي بحاجة إلى من يأخذ بيدها إلى رحمة الإسلام وعدله، لتخرج من ظلم الناس إلى عدل الإسلام⁽²⁰³⁾، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

ورسالة المساواة هذه ليست رسالةً نظرية بعيدة عن واقع التطبيق والحياة، بل هي رسالةٌ حيَّةٌ أنزلها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته واقعاً عملياً في حياتهم، وهي واقعٌ مشهودٌ لأهل الإسلام على مرِّ القرون والأيام، ولم تكن مقتصرةً على أهل الإسلام فقط، بل المبدأ الأول الذي خلق الله الكون عليه هو وحدة هذه البشرية من حيث أصلها ومنشئها، والشريعة الربانية شريعةٌ عادلةٌ مع المسلم وغير المسلم، وقد جاءت الآيات العديدة مرَّةً في إنصاف يهودي، ومرَّةً في النهي عن الظلم، ومرَّةً في الأمر بالعدل مع الجميع ولو كان بين المسلمين وبينهم عداوة، فقد أمر الله تعالى الأمة المسلمة بالعدل المطلق فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58] فهذا أمرٌ بالأمانة المطلقة بين الناس جميعاً، على اختلاف عقائدهم وأجناسهم، وعلى اختلاف أوطانهم وقومياتهم، وهذه الآية ترسخ لعدلٍ شاملٍ للناس جميعاً، لا عدل بين المسلمين فقط، ولا مع أهل الكتاب دون سائر الناس، بل هو حقٌّ لكلِّ إنسانٍ بوصفه إنساناً، فهذه هي الصفة التي يترتب عليها حقُّ العدل في المنهج الرباني، وهي التي يلتقي عندها البشر مؤمنين وكفار، أصدقاء وأعداء، عرباً وعجماً، سوداً وبيضاً⁽²⁰⁴⁾.

وهذه الصورة الناصعة لا تكادُ تجدُ لها شبيهاً في جميع الأمم سوى أهل الإسلام، فلا تكادُ تخلو أمةٌ من الأمم من الصور العنصرية التي تحيف على غير أبناء جنسهم أو لوهم أو بلدهم، فأين العدل وأين المساواة التي تدعيها الحضارات المعاصرة،

(201) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 843).

(202) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 899).

(203) ينظر: في ظلال القرآن (4/ 2401).

(204) للمزيد ينظر: في ظلال القرآن (1/ 570) و(2/ 689).

يُمنع الإنسان اليوم من السفر في أرض الله الواسعة بحجة أنه لا ينتمي إليها أو أنه لا يشبه أهلها، ويمنع الإنسان من كثيرٍ من حقوقه إذا دخل على أرضٍ وهو غريبٌ عنها بحجة أنه لا يمتلك جنسية هذا البلد، ويتعرض كثيرٌ من الناس للعنصرية بحجة أنهم غرباء عن أرضٍ ما أو أنهم مهاجرون إليها، وكثيرٌ من الصور التي لا نهاية لها، ترى التفرقة والتمييز العنصري اليوم يقوم على حججٍ واهية، وعصبية جاهلية، وجهلٍ عميق بالمنهج الرباني الذي وضعه الله تعالى لهذه البشرية، فأين تجد الأمر بالعدل والإنصاف مع جميع الناس سوى في الشريعة الربانية، وأين سيخلو مجتمعٌ من الممارسات العنصرية سوى المجتمع الذي سيطبق هذا المنهج واقعاً عملياً في حياته.

إنَّ دور هذه الأمة أن تكون وصيةً على البشرية لتقيم العدل فيها، غير متأثرة بمودة أو شنآن، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُكُمْ قَوْمٌ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8] هذه هو الميثاق الذي أخذه الله على هذه الأمة المسلمة، ميثاق القوامة على البشرية بالعدل والميزان الذي لا يميل ولا يتأثر بقرابة أو مصلحة أو هوى، عدلٌ قائمٌ على الإيمان بالله وحده والشعور بمراقبته وعلمه⁽²⁰⁵⁾.

إذاً نرى أنَّ المساواة الإنسانية تتحقق أولاً عند حضور التصورات الصحيحة عن الكون والحياة، تتحقق بالإيمان بوحدة الخالق سبحانه وتعالى، ثمَّ تتحقق المساواة بالإيمان بوحدة البشرية ووحدة نشأتها ومصدرها، وأنها صدرت عن إرادة واحدة ومخلوقة من نفسٍ واحدة، وتتجلى المساواة الإنسانية بتساوي الناس جميعاً في علاقتهم بالله تعالى، فالكلُّ سواءٌ عنده، لا صلة ولا قرابة ولا عهد لأحد، بل يرفع الإنسان عمله، ولتتحقق هذه المساواة لا بدَّ من التزام منهج الله الذي ارتضاه للبشرية، والذي تتابعت الرسل على الدعوة إليه، فهو المنهج الوحيد الذي يحمل العدل المطلق بين جنباته، وهو المنهج الوحيد الذي أقامه المسلمون واقعاً عملياً ولم يبق حالةً نظرية كبقية القوانين التي يضعها البشر لعلاج مشكلاتهم، فالناس جميعاً سواءٌ أمام المنهج الرباني، الرجل والمرأة، والقوي والضعيف، والأبيض والأسود، كلهم سواء في حقوقهم وواجباتهم، وكذلك العدل شاملٌ لغير أبناء الإسلام، لا لشيء سوى أنهم جزء من الإنسانية الواحدة التي أمر الله تعالى العدل معها.

(205) ينظر: في ظلال القرآن (2/ 852).

خاتمة

الحمد لله الذي أكرمني بهذا العمل، وأرجو منه سبحانه القبول، وأستغفره على الزلل والتقصير، إنه أكرم مسؤول وأعظم

مأمول، والصلاة والسلام على إمام المتقين وسيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه أجمعين.

عملت في هذه الرسالة على بيان ظاهرة العنصرية وآثارها السلبية في المجتمعات، وإظهار الحلول القرآنية لهذه الظاهرة

الاجتماعية المنتشرة، وقد توصلت البحث إلى بعض النتائج:

- تعدُّ العنصرية ظاهرةً قديمةً ومنتشرةً في كثيرٍ من المجتمعات عبر التاريخ، كان إبليس أول من مارسها، إذ ادَّعى لنفسه ونوعه فضلاً على غيره ممن خلق الله، وبنى على اختلاف نوعه فضلاً يستحقه معترضاً على أمر الخالق عزَّ وجلَّ.
- تعدُّ العنصرية امتداداً للأخلاق والتصرفات الجاهلية التي حذَّر الإسلام منها، وقد عرف العرب قبل الإسلام كثيراً من التحيزات العنصرية في حياتهم الاجتماعية والسياسية.
- لم تنجح المحاولات والقوانين في الحدِّ من هذه الظاهرة، مع أنَّ كثيراً من الدول تُجرِّم العنصرية في قوانينها، إلا أنَّك تجدها حاضرةً في الممارسات السلوكية لأفراد تلك الدولة.
- تتجلى العنصرية في مظاهر شتى، تختلف وتتنوع باختلاف الزمان والمكان، منها **عنصرية الجنس والأصل**، كذلك عنصرية العرق والنسب، والعنصرية القومية والقطرية المعاصرة، وعنصرية اللون خصوصاً الأبيض والأسود.
- اهتمام المؤلف بنقد الحالة المجتمعية السائدة، ومحاولته نقد الظواهر الجاهلية المنتشرة فيه، ووضع التصورات الإسلامية الصحيحة.
- التوحيد هو أول ركيزة تقوم عليها البشرية، وهو أول مساهمٍ محاربة التمييز العنصري، وإنشاء المجتمع المثالي
- حقيقة أنَّ الناس من أصلٍ واحدٍ أهمُّ علاجٍ للتمييز العنصري، حضور هذه الحقيقة يزيل كلَّ الفروق الحاضرة اليوم في حياة الناس أبناء النفس الواحدة
- الآصرة التي جمعت المجتمع الإسلامي الأول هي آصرة العقيدة فقط، وهي التي يجب أن تجمع المجتمع المنشود، لا أواصر اللون والجنس والأرض، ولا المصالح والحدود القومية.

- للتشريع الإسلامي دورٌ كبيرٌ في معالجة العنصرية من خلال مجالاتٍ مختلفة، فنرى في باب العبادات أحكاماً تأخذ دوراً فاعلاً في تخليص المجتمع المسلم من أي ظاهرةٍ عنصرية، كذلك في باب المعاملات والأخلاق.
- باب المعاملات في التشريع الإسلام صورٌ شئى من الأحكام التي تساهم في إرساء العدل والمساواة بين بني الإنسان، كإعطاء الحقوق، ومنع الاعتداء وغيرها، التشريعات الإسلامية ترسي العدل في المجتمع، وتمنع التحيزات والأحكام التي تقوم على أسسٍ عنصرية.
- العدالة الاجتماعية ركنٌ أساسي في النظام الإسلامي، وركيزة تضمن الاستقرار والعدل، وتحفظ استمرار الأمم والمجتمعات، تتميز بكون مرجعيتها مرجعيةً ربانية، وهي منبثقة من النظام الإسلامي.
- المساواة الإنسانية تتحقق أولاً بالإيمان بوحدة الخالق سبحانه وتعالى، ثم تتحقق المساواة بالإيمان بوحدة البشرية ووحدة نشأتها ومصدرها، وأنها صدرت عن إرادة واحدة ومخلوقة من نفس واحدة.
- المساواة الإنسانية تتحقق بتساوي الناس جميعاً في علاقتهم بالله تعالى، فالكلُّ سواءٌ عنده، لا صلة ولا قرابة ولا عهد لأحد
- المعيار الذي تقوم عليه الدنيا هو معيار التقوى والعمل الصالح، والناس كلهم في هذه الدنيا أبيضهم وأسودهم وذكرهم وأنثاهم سواء في هذه الدنيا.

التوصيات

- نبذ العنصرية بجميع صورها ومظاهرها، والعمل على سنّ القوانين الرادعة للممارسات العنصرية.
- وجوب استفادة المؤسسات الدولية اليوم من التشريعات الإسلامية لمعالجة العنصرية.
- الحرص على تفعيل دور الدين في معالجة الأمراض الاجتماعية المنتشرة.
- العمل على بثّ الوعي حول المشتركات بين الإنسانية جمعاء.
- بثّ الوعي بوحدة الإنسانية من خلال وسائل الإعلام والمناهج الدراسية.



فهرس المصادر

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الجزري (ت: 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ، 1997م.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: 241هـ)، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ، 2001م.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين الأندلسي (ت: 328هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1404هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، (ت: 711هـ)، لسان العرب، دون تحقيق، دار صادر، بيروت - لبنان، ط3/1414هـ.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة: بدون.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح - صحيح البخاري (ت: 256هـ)، تحقيق محمد زهير الناصر، ترقيم فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى 1422هـ.
- البهي، محمد، التفرقة العنصرية والإسلام، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، 1399هـ، 1979م.
- الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير - سنن الترمذي، (ت: 279هـ) تحقيق بشار معروف، دار الغرب الإسلامي 1998م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، أبو الحسن، (ت: 816هـ)، كتاب التعريفات، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1/1983م.
- جعفر، عبد الغفور، التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، دار السلام، الطبعة: الثانية، 1433هـ، 2012م.
- الخالدي، صلاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم - دمشق، الطبعة: الثالثة، 1429هـ، 2008م.
- الخالدي، صلاح، سيد قطب الشهيد الحي، الدار الشامية، الطبعة: الأولى 1473هـ، 2016م.
- الخالدي، صلاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، الطبعة: الثانية 1414هـ، 1994م.
- الخالدي، صلاح، مدخل إلى ظلال القرآن، دار عمار، الأردن - عمان، الطبعة: الثانية، 1421هـ، 2000م.
- الخطيب، عمر عودة، نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، 1398هـ، 1978م.
- خلف الله، محمد أحمد، القومية العربية والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة: الثالثة، 1988م.
- خليل، محمد شحاتة، التمييز العنصري وأحكامه في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، المجلد الخامس من العدد الرابع والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية.
- الرومي، فهد، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، الطبعة: الرابعة 1419هـ.

- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الزاق الحسيني، أبو الفيض، (ت: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، دون طبعة.
- زرزور، عدنان محمد، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، دار القلم، الطبعة: الثانية، 1419هـ، 1998م.
- الزغبى، أحمد بن عبد الله، العنصرية اليهودية وآثارها على المجتمع الإسلامي والموقف منها، مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، 1418هـ، 1998م.
- الزيات، المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة، الطبعة: بدون.
- سيد قطب، نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، الدار السعودية للطباعة والنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الأولى 1389هـ، 1969م.
- زكيو مصطفى، العوامل المساعدة في بروز ظاهرة العنصرية، مجلة الدراسات والبحوث الإنسانية، مجلد 7، العدد 1، 2022.
- الطبراني، سليمان بن أحمد اللخمي الشامي، المعجم الكبير، مكتبة ابن تيمية، تحقيق: حمدي السلفي، الطبعة: الثانية، 1415هـ، 1994م.
- عابنه، محمد مصلح ثلجي، العنصرية وعلاجها من منظور تربوي إسلامي، رسالة ماجستير في قسم الدراسات الإسلامية جامعة اليرموك.
- العظيم، يوسف، رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب حياته ومدرسته وآثاره، دار القلم، الطبعة: الأولى 1400هـ، 1980م.
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، دار عالم الكتب، الطبعة: الأولى.
- غادة عبد الجليل أحمد الغنيمي، العنصرية أسبابها ومظاهرها في العالم المعاصر مالكوم إكس نموذجاً، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد 5، الجزء 4، 2020.
- القرشي، محمد بن أبي الخطاب (ت: 170هـ)، جمهرة أشعار العرب، تحقيق: علي البجادي، دار نضرة مصر للطباعة والنشر، الطبعة: بدون.
- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة السابعة عشر 1425هـ، 2004م.
- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة: السابعة عشر 1425هـ، 2004م.
- قطب، سيد، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، 1415هـ، 1995م، الطبعة: بدون.
- قطب، سيد، طفل من القرية، الدار السعودية للنشر، الطبعة: بدون.
- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت، الطبعة: السابعة عشر 1412هـ.
- قطب، سيد، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق - بيروت، الطبعة: الثامنة، 1424هـ، 2003م.
- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- المناوي، زين الدين محمد، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، 1356هـ،
- الندوي، أبو الحسن، اسمعوها مني صريحة أيها العرب، الناشر والطبعة: بدون.
- الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان - المنصورة، الطبعة: الثالثة عشر.
- الهروي، محمد بن أحمد، أبو الحسين، (ت: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 2001م.

الروابط:

- بودفلة فتحي، المعالم المنهجية الكبرى في تفسير سيد قطب <https://mtafsir.net/>
- بودفلة فتحي، دلالات عنوان " في ظلال القرآن " لسيد قطب [https://al-](https://al-maktaba.org/book/31871/21741)
[maktaba.org/book/31871/21741](https://al-maktaba.org/book/31871/21741)
- الغزالي، زينب، أيام من حياتي، المصدر: <http://www.tawhed.ws/>، الطبعة: بدون.

ÖZGEÇMİŞ

Lübnan'daki Trablus Üniversitesi'nde TEMEL İSLAM BİLİMLERİ okudum ve 2019'da mezun oldum. İslami el yazmalarının gerçekleştirilmesinde çalıştım ve şimdi Asil vakıfta çalışıyorum.

السيرة الذاتية

درست الشريعة الإسلامية في جامعة طرابلس لبنان، تخرجت منها عام 2019، عملت في تحقيق المخطوطات الإسلامية،

وأعمل في وقف أصيل.

